

الباب الثالث

عصر الأبطال

الفصل الأول

الآخيون

عثر المتقبون في بوغاز كوى Boghaz Keui على ألواح حثية قليلة يرجع عهدها إلى حوالى عام ١٣٢٣ ق . م تصف الأهجاا Ahhijava بأنهم شعب لا يقل في قوته عن الحثيين أنفسهم . وورد في سجل مصرى يرجع إلى حوالى عام ١٢٢١ ق . م أن الأكياشا Akaiwasha انضموا إلى غيرهم من « شعوب البحر » في غارة لوبية على مصر ، ويصفهم بأنهم عصابات رحل « يقاتلون ليشبعوا بطونهم ... »^(١) .

والآخيون كما يصفهم هومر في شعره شعب يتكلم اللغة اليونانية يسكن جنوبي تساليا^(٢) ، وإذ كان هذا الشعب قد أصبح أقوى القبائل اليونانية فإن هومر يطلق اسمه على جميع اليونان الذين حاربوا طروادة . ويصف المؤرخون والشعراء اليونان ، الذين عاشوا في أيام مجد البلاد الأدبي ، الآخيين ، كما يصفون البلاسيين ، بأنهم أهل البلاد الأصليون ، وأنهم كانوا يعيشون فيها من أقدم الأزمنة التي تعيها الذاكرة ، وافترضوا من غير ما تردد أن الثقافة الآخية التي يصفها هومر كانت هي والتي سمينها في هذا الكتاب بالثقافة الميسينية ثقافة واحدة . وأخذ شليمان بهذا الرأي ، وظل العلماء يأخذون به فترة قصيرة من الزمان .

ثم حدث في عام ١٩٠١ أن جاء رجل إنجليزي عنيد هو سير ولیم ریدجواى Sir Willam Ridgeway^(٢) وزعزع هذه الثقة العزيزة على نفوس العلماء بقوله إن الحضارة الآخية ، وإن انفتحت هي والميسينية في نواح كثيرة ، تختلف عنها في تفاصيل هامة : (١) فالحديد لا يكاد يعرف في الحضارة الميسينية أما الآخيون فهم على علم به . (٢) ويذكر هومر أن موتى الآخين يحرقون ، أما في تيرينز وميسني فهم يدفنون ، وهذا يدل على اختلاف هؤلاء وأولئك في عقيدتهم عن الحياة الآخرة . (٣) والآلهة الآخية هي الآلهة الأولمبية ، وهذه لا أثر لها قط في ثقافة ميسني . (٤) إن الآخين يستعملون سيفاً طويلة ، وتروساً مستديرة ودبابيس للصدور مأمونة ، ولم يعثر قط بين الآثار الميسينية على أدوات مشابهة لها في الشكل . (٥) وبين الشعبين اختلافات كثيرة في ملابسهم وفي تصفيف شعرهم . واستنتج ريدجواى من هذا أن الميسنيين بلاسجيون ، وأنهم كانوا يتكلمون اللغة اليونانية ، وأن الآخين « كِلْت » شقر أو من شعوب أوربا الوسطى نزحوا إلى تلك البلاد مخترقين لإيروس وتساليا ابتداء من عام ٢٠٠٠ ق . م ، وجاءوا معهم بعبادة زيوس ، ثم غزوا البلوبونيز حوالى عام ١٤٠٠ ، واتخذوا اليونانية لغة لهم ، واتبعوا أساليب الحياة اليونانية ، وأقاموا من أنفسهم زعماء إقطاعيين يحكمون من قصورهم الحصينة البلاسجيين الحاضعين لسلطانهم .

وتلك نظرية تلقى بلا شك كثيراً من الضوء على أصل أولئك القوم حتى لو اضطر العلماء إلى إدخال تعديلات جوهرية عليها . وما يؤخذ عليها أن الآداب اليونانية لا تذكر قط شيئاً عن غارة آخية على بلاد اليونان ، وأن ليس من الحكمة أن ترفض نظرة أجمع عليها العلماء بسبب زيادة تدرجية في استعمال الحديد ، أو تبدل في أساليب الدفن أو تصفيف الشعر ، وفي إطالة

السيوف أو استدارة التروس أو التزين بدبابيس مأمونة . وأرجح من هذا الرأي أن نفترض ، كما كان يفترض كتاب اليونان الأقدمون ، أن الآخيين قبيلة يونانية انتشرت على أثر الزيادة الطبيعية في عددها من تساليا إلى البلوبونيز في خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر وامتزجت دماؤهم بدماء البلسجيين - الميسينيين الذين كانوا في تلك البلاد - وأنهم أصبحوا حوالى عام ١٢٥٠ ق . م الطبقة الحاكمة فيها^(٤) . وأغلب الظن أنهم هم الذين أخذ عنهم البلاسجيون اللغة اليونانية ، ولم يأخذوها هم عن البلاسجيين . وقد تكون ألفاظ كورنثة ، وتيريز ، وپارنس Parnassus ، وأولمبيا(*) وأمثالها من أسماء الأماكن ، قد تكون هذه أصداء للغة كريتية - بلاسجية - ميسينية^(٥) . وبهذه الطريقة عنها ، فيما يبلولنا ، فرض الآخيون آلهتهم المحلية والسموية على الآلهة - لأرضية التي كان يعبدوها من قبلهم من الأهلين . أما فيما عدا هذا فليس ثمة فارق واضح بين الثقافة الميسينية وذلك الطور الأخير منها ، وهو الآخية ، الذى نجده في أشعار هومر . ويلوح أن أساليب الحياة عند هؤلاء وأولئك قد امتزجت وانصهرت حتى أمتست أساليب واحدة . ثم انمحت الحضارة الإيجية ببطء بعد أن جرى هذا الامتزاج في مجراه ، وقضى عليها الفضاء الأخير في هزيمة طروادة ؛ ومن ذلك الوقت بدأت الحضارة اليونانية .

(*) وألفاظ يونانية أخرى مثل sesamon سمسم ، kyparissos (السرو) ، hyssops (الثنام) ، einos (الحمر) ، sandalon (المسندل) ، chaikos (النحاس) ، thalassa (البحر) ، molybdes (الرصاص) ، zephyros (النفيم) ، tkybernao (يوجه السفينة) ، sphengos (الإسفنجة) ، jaos (النحاس) ، labyrinthis (التيه) ، aktharis (الزيتار وهي آلة موسيقية شبيهة بالقيثارة) ، syriax (الناي) ، pafan (تهليل) .

الفصل الثاني

خرافات الأبطال

نوحى إلينا خرافات عصر الأبطال بأصل الآخين وبما آل إليه أمرهم . وليس من حقنا أن نغفل هذه القصص ، فهي وإن سادها خيال القتل وإراقة الدماء قد يكون فيها من الحقائق التاريخية أكثر مما نظن ، وهي ممزجة بالشعر والسرح والفن اليوناني امتزاجاً يجعل فهمها مستحيلاً بغير هذه القصص (*) ، وتذكر التتوش الحثية اسم ملك يدعى أتاريسياس Atarissyas تقول إنه ملك الأهيجافا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ؛ وأكبر الظن أنه هو أتريوس ملك الآخين (٦) . وتقول الأساطير اليونانية إن زيوس أعقب تantalos ملك فرجيا (**) وإن هذا أعقب بليس Pelops ، وأعقب بليس أبجمنون ، ولما نفي بليس من وطنه جاء إلى إليس في غرب

(٥) برسيوس ... هرفليس ... مينوس ، نيسوس ، جيسن ... إن من المؤلف في هذه الأيام أن تعد هؤلاء وغيرهم من أبطال ذلك العصر ... من خلق الأساطير وحدها . أما إليه نان المتأخرون فقد كانوا في تقدم لتواريخ أيامهم الماضية لا يشكون في أن هؤلاء أشخاص حقيقيون حكموا بالفعل في أرجوس وغيرها من الممالك ، وقد أخذ كثيرون من النقاد المحثين ، بعد أن ظلوا يشكون في آراء النقاد اليونان زمناً طويلاً ، أخذ كثيرون من هؤلاء النقاد يعودون إلى رأى اليونان ويرون أنه هو الرأى الذى يفسر ما لدينا من الشواهد تفسيراً مقبولاً ... إن أبطال القصص « أبطال حقيقيون » شأنهم في هذا شأن المواضع الجغرافية لقي كانوا يتحركون فيها . تاريخ كيمرج القديم المجلد الثانى ص ٤٧٨ . وسنفترض في هذا الكتاب أن الخرافات الكبيرة حقيقية في جوهرها وهمية في تفاصيلها .

(٥٥) وأغضب تantalos الآلهة بأن أفشى أسرارها ، وسرق شراها وطعامها ، وقدم لها بدلاً منها ابنه بليس يد أن قطعه إرباً وغلاه . وأعاد زيوس جسم بليس كما كان وجازى تantalos في الجحيم بأن سلط عليه ظمأ شديداً ، فوضعه وسط بحيرة ينحسر ماؤها كلما هم بشربه وعلق فوق رأسه أغصاناً مثقلة بالفاكهة ، تبتهد عنه كلما حاول الوصول إليها ، كما طلق فوقه وعلق فوق رأسه أغصاناً مثقلة بالفاكهة ، تبتهد عنه كلما حاول الوصول إليها ، كما طلق فوقه صخرة تهدده في كل وقت بأن تسقط عليه وتهشمه (٧) .

البلوونيز حوالى ١٢٨٣ وصمم على أن يتزوج هبودوميا Hippodomia ابنة أونوماؤس Onomaus ملك لإليس . ولا تزال القوصرة الشرقية فوق الهيكل العظيم المقام لزيوس فى أولبيا تقص علينا قصة خطبتهما . وقد كانت عادة الملك أن يختبر من يتقدمون لخطبة ابنته بأن يتبارى وإياهم فى سباق المركبات فإذا سبقه الخطيب تزوج هبودوميا ، أما إذا لم يسبقه فإنه يقتل . وحاول كثير من الخاطبين أن يفوزوا بها ، ولكنهم خسروا السباق وخسروا حياتهم جميعاً ؛ وأراد بلپس أن يقتل ما يتعرض له من الأخطار بأن أرشى مرتيلوس Myrtilus سائق عربة الملك ليزيل المسامير التى تربط عجلات العربة بقطبها ، ووعده بأن يقتسم معه المملكة إذا أفلحت خطبتهما . وحدث فى أثناء المباراة أن انكسرت عربة الملك وقتل ، وتزوج بلپس هبوداميا وحكم لإليس ولكنه لم يقتسم مملكته مع مرتيلوس بل ألقاه فى البحر ؛ وصب مرتيلوس وهو يفرق لئنة على بلپس وعلى جميع نسله .

وتزوجت ابنة بلپس سثلوس Sthenelus بن پرسوس ملك أرجوس ؛ وورث الملك من بعده ابنهما يوريسثيوس Eurystheus ، ولما مات خلفه عمه أتريوس . وتزوج أجمنون ومنلوس Menelaus ابنا أتريوس كليتمنسترا وهلن ابنتى تنداريوس Tyndareus ملك لاسيديمون Lacedaemon ، ولما مات أتريوس وتنداريوس اقتسم أجمنون ومنلوس فيما بينهما بلاد البلوونيز الشرقية بأجمعها ، وحكماها من عاصمتيهما ميسينى واسبارطة ، وسميت تلك البلاد بلوونيز أو جزيرة بلويس نسبة إلى جددهما ، بعد أن نسى أحفاده لعنة مرتيلوس .

وكانت بقية بلاد اليونان فى ذلك الوقت تجرد فى إنجاب الأبطال ، وكانوا يعملون فى الغالب فى تشييد المدن . وتقول الرواية اليونانية إن زيوس غضب على الجنس البشرى لما كان يقرّفه من مظالم لسلط عليه طوفاناً جائحاً لم ينجع منه إلا رجل واحد هو ديوكاليون Deucalion وزوجته پرها Pyrrha فى فلك

أو صندوق استقر على جبل پارسس . وتناسلت من هيلن Hellen بن ديوكاليون جميع القبائل اليونانية واشتق من اسمه هيلن Hellenes اسم هذه القبائل مجتمعة . وكان هيلن جد أخيروس Acheus وأيون Ion اللذين تناسلت منهما القبائل الآخية والأيونية واستقرتا بعد تجوال طويل أولاها في الپلوبيونيز والثانية في أنكا . وأنشأ سكرپس أحد أبناء أيون بمعونة الإلهة أثينا في موضع كان الپلسجيون قد استقروا من قبل على رابية فيه المدينة التي سميت فيما بعد باسمها وهي مدينة أثينة^(٨) . وتقول القصة إنه هو الذي نشر الحضارة في أنكا ، وسن شريعة الزواج ، وحرّم التضحية بالأحياء ، وعلم رعاياه عبادة الآلهة الأولمبية ، وخاصة زيوس وأثينا .

وحكم أبناء سكرپس وأحفاده أثينة وكانوا ملوكاً عليها . وكان رابع من حكمها من نسله إركثيوس Erechtheus الذي ألهمته المدينة وأقامت له فيما بعد هيكلًا من أجل هياكلها . وجمع حفده ثسيوس حوالي ١٢٥٠ ق م . قرى أنكا الاثنتي عشرة في وحدة سياسية سمي سكانها فيما بعد أيثا كانوا بالآثينيين . ولعل السبب في أن اسم أثينة اليوناني ينطق به بصيغة الجمع كما ينطق أيضاً اسم طيبة وميسيني هو أنها نشأت في بداية أمرها من اجتماع سكان عدة قرى متجاورة . وكان ثسيوس هو الذي وهب أثينة النظام والقوة ، وقضى على عادة التضحية بأبنائها قرباناً لثيوس ، وأمن أهلها في ترحالهم بقتل قاطع الطريق بركرستيس Procrustes الذي كان يحب أن يمد سيقان أسراه أو يقطعها حتى تكون في طول سريره . وعبدت أثينة ثسيوس بعد وفاته واتخذته هو أيضاً إلهاً لها . وجاءت المدينة في عام ٤٧١ ق م أي في عصر التشكك أيام بركليز ، جاءت بعظام ثسيوس من اسكبروس Scyros وأودعتها آثاراً مقدسة في هيكل ثسيوس .

وقامت في شمال أثينة في بووتيه Boeotia حاضرة أخرى تنافسها ، وكان لها مثلها تاريخ مثير للمشاعر ، قدر له أن يكون محور المسرحيات اليونانية في عصر البلاد الأدبي . فقد أنشأ الفينيقيون أو الكريتيون ، أو كادموس Cadmus أحد أمراء المصريين في أواخر القرن الرابع عشر مدينة طيبة عند ملقى الطرق التي تعبر بلاد اليونان من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، وعلم منشئوها أهلها الحروف الهجائية ، وقتلوا التين (ولعل هذا رمز قديم لوباء معد أو فتاك) الذي كان يمنع الأهليين من الانتفاع بماء العين الآرية Areian وخرج من أسنان التين التي غرسها كدموس في الأرض رجال مسلحون أخذوا يقتتلون كما يقتتل اليونان في عصورهم التاريخية حتى لم يبق منهم إلا خمسة ؛ وهؤلاء الخمسة هم الذين أنشئوا المدينة المالكة ، على حد قول طيبة نفسها . وكان مركز حكومة المدينة حصناً يدعى كدمية Cadmeia أقيم على ربوة عثر فيها في هذه الأيام على قصر كدموس (١) . وحكم بعد كدموس من هذا الحصن نفسه ابنه پوليدوروس Polydorus ثم حفيده لبدكوش Labdacus ثم ابن حفيده لايسوس Laius وهو الذي قتل ابنه أوديبوس (أوديب) Oedipus كما يعرف العالم كله وتزوج أمه . ولما مات أوديب تنازع الملك أبناؤه كما يتنازع الأمراء على الدوام ، وطرده إيتوكليز Eteocles أخاه پولينيسيز ، فذهب هذا إلى أدراستوس Adrastus ملك أرجوس وأقنعه بالعمل على تنصيبه ملكاً . وحاول أدراستوس أن يقوم بهذه المهمة (حوالي ١٢١٣ ق . م .) وشن على أثينة حرب (الأحلاف) السبعة ، ثم عاد إلى حربها مرة أخرى بعد ستة عشر عاماً من ذلك الوقت في حرب الإيجوني Epigoni أو الأبناء السبعة . وفي هذه الحرب قتل إيتوكليز وپولينيسيز وحرقت طيبة عن آخرها .

(٥) يرجع المؤرخون تاريخ هذا العصر إلى ما بين ١٤٠٠ ، ١٢٠٠ ق . م . وقد عثروا عليه على كتابة قليلة بحروف لم تحل رموزها بعد ولعلها متفرقة من أصل كريتى .

وكان بين أشراف طيبة رجل يسمى أمفتر يون Amphytryon متزوج من امرأة فانتة تدعى ألكمين Alcmena . وزارها زيوس وأمفتر يون غائب في حرب من الحروب واستولدها هرقليز (هرقل) Heracles أو هرقل Hercules^(٩) . ولم تكن هيرا Hera تحب أن ينزل الآلهة في عبثهم إلى هذا الحد فأرسلت حيتين لإهلاك الوليد في مهده ، ولكن الطفل أمسك كل واحدة منهما بإحدى يديه وخنقهما جميعاً ، ومن أجل ذلك سمي هرقليز لأنه ورث المجد عن هيرا . وحاول لينوس Linus ، أقدم الأسماء في تاريخ الموسيقى ، أن يعلم الطفل العزف والغناء ، ولكن هرقليز لم يعجباً بالموسيقى ، وقتل لينوس بقيثارته . ولما شب الطفل ، وأصبح جباراً ، شقياً ، سمجاً ، سكيراً ، نهماً ، تعهد أن يقتل أسداً كان يفتك بقطعان أمفتر يون وثسبيوس . وقدم ثسبيوس ملك ثسبيا Thespiee بيته وبناته الخمسين إلى هرقليز . وقام البطل بما تعهد به على أحسن وجه^(١٠) ، فقتل الأسد واتخذ جلده لباساً له ، وتزوج مجارة Megara ابنة كريون Creon الطبي وحاول أن يحيا حياة مستقرة هادئة ، ولكن هيرا سلطت عليه نوبة من الجنون ، فقتل أبنائه هلى غير علم منه . وجاء إلى مهبط الوحى في دلفى يستنصحه ، فأشير عليه بأن يذهب إلى تيرينز ويعيش فيها وينخدم يورثيوس ملك أرجوس مدى اثني عشر عاماً يصبح بعدها إلهاً مخلداً . فصعد بالأمر وقام ليورثيوس بالاثني عشر عملاً^(١١) الذائعة الصيت . ولما أطلقه الملك عاد إلى طيبة ، حيث قام

(٩) ويقول ديودور إن « زيوس ضاعف طول تلك اليلة ثلاثة أضعاف طولها الأصل ؛ وإنه تنبأ للطفل بقرته غير العادية بسبب طول الوقت الذى قضياه في إنجابها »^(٩)

(١٠) وخنق الأسد الذى كان يفترس قطعان نيميا Nemea ، وقتل الأنمى هيدرا الكثريرة الرؤوس التى أهلكت ليرنا Leirna ، وقبض على طيسى سريع العدو وجاء به إلى يورثيوس Eurystheus ، واقتنص خزيراً برياً من جبل يورممنثوس Eurymanthus وجاء به إلى يورثيوس ، وطهر في يوم واحد اسطبلات أوچياس وكان فيها ثلاثة آلاف ثور وذلك بأن حول مجرى البحر ألفيوس Alphens وپنيوس Peneus إلى مزاد الثيران ، وانتظر في إلس حتى أنام الألعاب الأولمبية ، ثم أهلك الطيور الأستغالية Stymphalian هفتاكه التى كانت في أركاديا ، وقبض على اثور الهائج الذى كان يعيش في كريت فساداً ، -

بأعمال كثيرة شاقة ، وانضم إلى ركاب السفينة أرجوس ، ونهب طروادة فيمن نهبها ، وأعان الآلهة على أن تنتصر على المردة الجبابرة ، وفك قيود بروميثيوس Prometheus ، وأعاد الحياة إلى أليستيس Alceste ، وقتل أصدقاءه في أوقات مختلفة بطريق الصدفة . واتخذ الناس بعد موته بطلاً وإلهاً وعبدوه . وإذا كان قد أحب فتيات يخطئن الحصر فقد ادعت كثير من القبايل أنها من نسله(*) .

واستقر أبناؤه في تراكيس Trackis في تساليا ، ولكن يوريشيوس خشي أن يخلعوه عن عرشه انتقاماً منه لما عاناه أبوه على يديه من نصب لا ضرورة له ، فأمر ملك تراكيس أن يخرجهم من بلاد اليونان . ولما أبناؤه هرقل إلى أثينة ، وسير يوريشيوس إليهم جيشاً ليقاتلهم ولكنهم هزموا الجيش وقتلوه . ولما جاءهم أثريوس على رأس قوة أخرى ، عرض هيلوس Hyllus أحد أبناؤه هرقل أن يبارز أحد رجال أثريوس مشروطاً أنه إذا غلب خصمه استولى الهرقليون على مملكة ميسيني ، وإذا هزم خرج الهرقليون فلا يعودون قبل

— وحله فوق ظهره إلى يوريشيوس ، وقبض على خيل ديوميدس Diomedes آكلة الآدميين وروضها ، وقتل الأمزونات عن آخرهن ، وأنشأ عند مدخل البحر المتوسط نئوين بارزين متقابلين هم « عمود هرقول » . رقبض على ثوري جريون Geryon وخرق بلاد غالة وجبان الألب ، وإيطاليا ثم عبر بهما لبحر إلى يوريشيوس ، ووجد تفاحتى هسبريدس ، ثم أسلك بالأرض زماً ما بدل أطلس ، ثم نزل إلى هيديس (الجحيم) ، وأنجى من العذاب فيها ثيسوس وأسكلفوس Ascalophus . وكانت هيرا قد عهدت إلى بنات أطلس بالتفاحات الذهبية التي أهدتها إليهما جاتيا Gaia (الأرض) حين تزوجت زيوس . وكان تنين جبار يحرس التفاحتين ، اللتين تهبان من يأكلهما صفات شبيهة بصفات الآلهة .

(*) (يظن دودور أن هذا « البطل الشقي » العجيب كان مهندساً بدائياً في عصر ما قبل التاريخ . شبيهاً بأبيدقليس . ويفهم من الخرافات التي قروى عنه أنه طهر اميرن لماثية ، وشق الطرق في الجبال ، وحول مجارى الأنهار واصلح الأراضي البور ، وطهر الغابات من الوحوش المفترسة ، وجعل أرض اليونان صالحة للسكنى (١١) وقد تفسر قصة هرقل على أنه كان ابن الله المحبوب الذي يرضى بالعذاب حباً في الخلق ، ويحمي الماوت وينزل إلى الجحيم ثم يصعد إلى السماء .

مضى خمسين عاماً يمتلك أبنائهم بعدها ميسيني^(١٢) . فلما هزم خرج هو وأتباعه من البلاد ، وبعد خمسين عاماً عاد إليها جيل جديد من الهركليين . وكانوا هم ، لا الدوريون ، الذين رفضت مطالبهم ، ففتحوا الهلوبيونيز ، كما تقول الرواية اليونانية ، وانتهى بهذا الفتح عصر الأبطال .

وإذا كانت قصة بليس وأبنائه تروى بأن آسية الصغرى هى أصل الأخيين فإننا نستطيع أن نتبع ما آل إليه أمرهم فى قصة ركاب السفينة أرجوس ، وهذه القصة ككثير غيرها من الخرافات التى تجمع بين الرواية التاريخية والقصص الشعبية عند اليونان تعد من أحسن القصص القديمة لأن فيها جميع عناصر المغامرة ، والارتداد ، والحرب ، والحب ، والغموض ، والموت ، اندمجت كلها بعضها ببعض وتكون منها نسيج غنى خصب صاغ منه أبولونيوس الرودسى فى أيام الحضارة المتأخرة ملحمة جديدة متوسطة القيمة بعد أن كاد الكتاب المسرحيون الأثينيون يبلونه بما صاغوه منه من مسرحيات . وتبدأ هذه الملحمة بقصة أوركمنوس البيوتى Boeotian وبالتضحية الآدمية كما تبدأ مأساة أجمنون . ذلك أن الملك أثاماس Athamas لما وجد أن بلاده قد حل بها القحط ، عرض أن يقرب ابنه فركسوس Phrixus قرباناً للآلهة . وبلغ الخبر مسامع فوكسوس ففر من أركمنوس بصحبة أخته هيلي Hel'e بأن طار معها فى الجوى على ظهر كبش ذى جزة من الذهب . ولكن الكبش لم يكن ثابتاً فى طيرانه فسقطت هلي من فوق ظهره وغرقت فى المضيق الذى سُمى فيما بعد الهلسينت . أما فركسوس فوصل سالماً إلى البر واتخذ طريقه إلى كلكير Colchis عند الطرف الشرقى من البحر الأسود ، وهناك ضحى بالكبش وعلق جزته قرباناً لآريس Ares إله الحرب . وأقام أيتيس Aietes ملك كلكير تينياً لا تغمض له عين ليحرس الجزة ، لأن نبوءة قد أوحى إليه أنه سيموت إذا استولى عليها رجل من غير أهل البلاد ، وأراد أن يزيد اطمئناناً على نفسه فأمر أن يقتل

كل من يأتي إلى كلكتيز من الغرباء . وكانت ابنته ميديا Medea تحب الغرباء والأساليب الغريبة ؛ وتشفق على أبناء السبيل وتساعدهم على الخروج من بلاد أبيها بسلامين ، فأمر أبوها بأن تمنع من الاتصال بالناس ، ولكنها فرت إلى مكان مقدس بجوار البحر وعاشت هناك مكتئبة حزينة دائمة التفكير في أمرها حتى عثر عليها جيسن Jason في أثناء تجواله على شاطئ البحر .

وقبل عشرين عاماً من ذلك الوقت (والمؤرخون اليونان يقولون إن ذلك كان حوالى ١٢٤٥) اغتصب بلياس Pelias بن پوسيدن Poseidon عرش لايسن Aeson ملك يولكون Iolcus من أعمال تساليا . وأخفى أصدقاء الملك المخلوع ابنه الطفل جيسن ، وشب هذا الطفل في الغابات حتى أصبح شاباً قوياً شجاعاً . وظهر يوماً من الأيام في السوق يرتدى جلد فهد ويحمل من السلاح رمحين ، وطالب بملك أبيه . ولكنه كان يبلغ من السذاجة مبلغه من القوة . وأقنعه بلياس أن يقوم بعمل شاق يكون ثمنه لعرشه — وكان هذا العمل الشاق هو استعادة الجزة الذهبية . فصنع جيسن السفينة العظيمة أرجو (أى السريعة) ودعا إلى صحبته في مغامرته أشجع شجعان اليونان ، فلبى الدعوة هرقل ومعه هيلاس Hylas رفيقه المحبوب ؛ وجاء معهما بليوس Peleus والد أخيل ، وثسيوس ، ومليجر Meleager ، وأرفيوس Orpheus والعذراء أتلنتا السريعة العدو . ولما دخلت السفينة الملسيت اضطرت إلى الوقوف ، ولعلها قد وقفت في وجهها قوة من طروادة لأن هرقل ترك الحملة لينهب المدينة ويقتل ملكها لومدون Laamedon وأبناءه كلهم عدا بريام .

ولما وصل ركاب السفينة أرجو إلى مقصدهم بعد أن لاقوا ألوانا من العذاب حذرته ميديا من الموت الذى ينتظر كل من جاء كلكتيز من الغرباء ، ولكن جيسن أصر على عزمه ورضيت ميديا أن تساعد في الحصول على الجزة إذا وعدها بأن يأخذها معه إلى تساليا ويحفظ بها زوجة له حتى مماته .

وعاهدها على ذلك واستولى بمعونتها على الجزة ، وفربها إلى سفينته ومعه ميديا ورجاله . وجرح الكثيرون منهم ولكن ميديا عاجلتهم بالأعشاب والجنود . ولما وصل جيسن إلى پولكوس طالب بمملكته مرة أخرى ، وتلكأ بلياس في إجابة طلبه ، فما كان من ميديا إلا أن استعانت بفنون السحر فخدعت بنات بلياس وحلتهن على أن يغلين أباهن حتى يموت . وارتاع الناس من قواها السحرية فأخرجوها هي وجيسن من پولكوس وحرموه من العرش إلى أبد الدهر^(١٣) . وترك بقية القصة إلى يوربديز .

إن الأسطورة في الكثير الغالب قطعة من الحكم الشعبية يخلق منها الشعراء أشخاصاً . وكثيراً ما تكون الأسطورة قطعة من التاريخ تضخمت بفضل ما اتصل بها من قصص جديدة على مرّ السنين . وأكبر الظن أن اليونان قد حاولوا في الجليل السابق على حصار طروادة التاريخي أن يشقوا طريقهم في الملسينت ويفتحوا بلاد البحر الأسود للاستعمار والتجارة ؛ وقد تكون قصة رجال السفينة أرجو ذكريات قديمة لهذا الارتداد التجارى صيغت في قالب المسرحيات ؛ وقد تكون قصة « الجزة الذهبية » إشارة إلى الجلود الصوفية أو الأقمشة التي كانت تستخدم قديماً في شمالي آسية الصغرى للحصول على ما تحمله المحارى المائية من قطع ذهبية صغيرة^(١٤) .

ولقد استقر اليونان فعلاً حوالى ذلك الوقت في جزيرة لمنوس Lemnos التي لا تبعد كثيراً عن الملسينت . لكن البحر الأسود لم يكن من البحار الصالحة للتجارة والاستعمار رغم اسمه المغرى ، وقامت طروادة الحصينة مرة أخرى بعد أن انتهبا هرقل تعرّض سبيل من يخاطرون باجتياز المضيق ؛ ولكن اليونان لم ينسوا ما فعلوه من قبل وعادوا من جديد يحاولون اجتيازه بمائة سفينة بدل سفينة واحدة ، وأهلك الآخيون أنفسهم في سهل إليون ليحرروا الملسينت .

الفصل الثالث

الحضارة الهومرية

ترى كيف نستطيع أن نعيد تصوير حياة بلاد اليونان الآخية (١٣٠٠ - ١١٠٠ ق . م) بالاستناد إلى أقاصيصها ؟ أن أكثر ما نعتمد عليه من المصادر في رسم هذه الصورة هو أشعار هومر ، وهو إنسان قد لا يكون له وجود ، وقد قيلت ملاحمه بعد عصر الآخيين بثلاثة قرون على أقل تقدير . نعم إن علم الآثار قد أدهش الأثريين بأن أثبت أن طروادة ، وميسني ، وتيرينز ، وكنوسس وغيرها من المدائن التي وصفتها الإلياذة كلها مدن حقيقية ، كما أدهشهم بالكشف عن حضارة ميسينية تشبه شهاً عجيباً تلك الحضارة التي تشكل من تلقاء نفسها بين أشعار هومر ؛ ومن أجل هذا ينزع العلماء في هذه الأيام إلى أن يعدلوا بعض الأشخاص المهمين الذين ورد ذكرهم في هذه القصص الخالابة أشخاصاً حقيقين . لكننا مع هذا لانستطيع أن نقول إلى أى حد تعكس قصائد هومر حال العصر الذي كان يعيش فيه الشاعر لا العصر الذي يكتب عنه . إذن فكل الذي في وسعنا أن نسأل عنه هو : ما هي الصورة التي كانت تخيلها الرواية اليونانية كما جمعها هومر في أشعاره عن العصر الهومري ؟ ومهما تكن هذه الصورة فإننا سنحصل منها على صورة من بلاد اليونان في طور الانتقال الطريف من الثقافة الإيجية إلى حضارة اليونان في العصور التاريخية .

١ - العمال

إن الصورة التي تنطبع في أذهاننا عن الآخيين (أى عن اليونان في عصر الأبطال) هي أنهم كانوا أقل حضارة من الميسينيين الذين سبقوهم ،

وأرق حضارة من الدورين الذين خلفوهم ، وأهم ما نلاحظ فبهم أنهم كانوا أحسن أجساماً من هؤلاء وأولئك ، فرجالهم طوال القامة أقوياء البنية ، ونساؤهم ذوات جمال بارع فتان يسلب العقول بكل ما فى هذا التعبير من معان . والآخيون ينظرون ، كما ينظر الرومان الذين عاشوا من بعدهم بألف عام ، إلى الثقافة الأدبية على أنها تدهور وتخت . وهم لا يستخدمون الكتابة إلا مضطرين ، ولا يعرفون من الأدب إلا الأغاني الحربية وأناشيد الشعراء الجوالين غير المكتوبة . وإذا جاز لنا أن نصدق هومر حق علينا أن نقول إن زيوس قد حقق فى المجتمع الآخى آمال الشاعر الأمريكى الذى كتب يقول إنه لو كان إلهاً لجعل الرجال كلهم أقوياء ، والنساء كلهن حسناً ، ثم جعل نفسه بعد ذلك رجلاً . لقد كانت بلاد اليونان الهومرية جنة من الحور العين^(١٥) . وحتى رجالها كانوا على جانب كبير من الجمال ، كان لهم شعر مرسل طويل ، ولحى كبيرة ، وكانت أعظم هدية يستطيع الرجل أن يهديها أن يقص شعر رأسه ويقربه قرباناً أمام كومة الحطب التى تحرق عليها جثة صديقه^(١٦) ، ولم يكن العرى قد أصبح بعد عادة فى البلاد فكان النساء والرجال يغطون أجسامهم برداء مربع يطوونه فوق الكتفين ، ويشبكونه بدبوس ، ويصل إلى قرب الركبتين . وتضيف النساء إلى هذا نقاباً أو حزاماً ويضيف الرجال غطاء للحقوين — قدر له أن يتطور على مر الزمن وازدياد الاحتشام والكرامة حتى أصبح هو اللباس ثم السروال (البنطلون) . وكان الأغنياء يرتدون أثواباً غالية الثمن كالثوب الذى تقدم به بريام فى ذلة إلى أخيل ليفتدى به ولده^(١٧) . وكان الرجال حفاة الأقدام والنساء عاريات الأذرع ، إلا فى خارج الدور فكانوا يحتذون جميعاً صنادل ، أما فى داخلها فكانوا فى العادة حفاة . وكانوا رجالاً ونساء يتحلون بالجواهر ، وقد ادهنت النساء وادهن باريس « بالزيت الذى له رائحة الورد^(١٨) » .

ترى كيف كان يعيش أولئك الرجال والنساء ؟ يصفهم هومر بأنهم

كما كانوا يحرقون الأرض ، ويشمّون وهم فرحون الأرض السوداء بعد قلبها ، ويتبعون بأعينهم في فخر وخبلاء الخطوط المستقيمة التي خطتها المحارث ، ويبدرون القمح ويروون الأرض ، ويقيمون الجسور ليمتوا بها فيضان الأنهار في الشتاء^(١٩) . ويشعرنا هومربياس الفلاح الذي قضى الشهور الطوال في كدح مستمر ثم يأتي « التيار الجارف السريع فيهدم الحواجز والجسور ، ولا تستطيع سلسلة الأكوام الطويلة أن تكبح جماحه ، أو أسوار البساتين المثمرة حين يفاجئها أن تقف في سبيله^(٢٠) » وليست أرض البلاد ممّا يسهل فلحها لأن الكثير منها جبال أو مناقع ، أو تلال كثيفة الأشجار ، وكانت الحيوانات البرية تهاجم القرى ، فكان الصيد ضرورة قبل أن يصبح رياضة وهواية . وكان الأغنياء يعنون بترية قطعان كبيرة من الماشية ، ولضأن ، والخنازير ، والمعز ، والخليل ، ويروى أن رجلاً منهم يسمى إركثونيوس Erichthonius كان له ثلاثة آلاف فرس ولود مع أمهاتها^(٢١) . وكان الفقراء يأكلون لحم السمك ، والبقول ، والخضر أحياناً ، أما المحاربون والأغنياء فكان جل اعتمادهم على اللحم المشوى الكثير ، وكان فطورهم اللحم والنبيد . وقد تغذى أديسيوس مع راعي خنازيره بخنزير صغير مشوى ، وتعشيا بثلاث خنزير عمره خمس سنوات . وكانوا يستعملون عسل النحل بدل السكر ، ودهن الحيوان بدل الزبد ، والكعك المصنوع من الحب بدل الخبز ، فكانوا يجعلونه رقائق ثم يخبزونه على لوح من الحديد أو على حجر محمى ، ولم يكن الآكلون يضطجعون في أثناء تناول الطعام كما كان الأثينيون يفعلون فيما بعد ، بل كانوا يجلسون على كرسي ممتدة على طول الجدار لا مصفوفة حول مائدة وسطى . ولم يكونوا يستعملون الشوك أو الملاعق أو القوط إلا ما عسى أن يكون مع الضيوف من مدى ، وكنوا يأكلون بأيديهم وأصابعهم^(٢٢) ، وكان شراهم الرئيسي حتى الفقراء والأطفال هو النبيد المخفف .

وكانت الأرض ملكاً للأسرة أو العشيرة لا للفرد : وكان الأب هو الذي



(شكل ٥) كأس من فافيو
(متحف أثينا)



(شكل ٦) قناع « أجمنون »
(متحف أثينا)

obeikandi.com

يشرف عليها ويصرف شئونها ، ولكنه لم يكن من حقه أن يبيعها^(٢٤) ، وتقول الإلياذة إن مساحات واسعة كانت من أملاك الملك المشاعة (الدومين) ؛ وكانت في واقع الأمر ملكاً للمجتمع يستطيع أى إنسان أن يرعى فيها ماشيته ؛ ونرى في الأودية أن هذه الأرض المشاعة قد قسمت وبيعت — أو صُبِحت ملكاً للأفراد الأثرياء أو الأقوياء ؛ وهكذا اختفت الأرض المشاعة في بلاد اليونان القديمة بنفس الطريقة التي اختفت بها في إنجلترا الحديثة^(٢٥) .

وكان في مقدور الأرض أن تخرج المعادن كما تخرج الطعام ؛ ولكن الآخرين أهملوا استخراج المعادن واكتفوا باستيراد النحاس ، والقصدير ، والفضة والذهب ، ومادة أخرى جديدة عجيبة من أسباب الترف ، وهي الحديد . فنرى كتلة غير مشكلة من الحديد تقدم هدية ثمينة في الألعاب التي أقيمت تكريماً لـ *Patroclus*^(٢٦) ، ويقول عنها أخيل إنه سوف يُصنع منها كثير من الأدوات الزراعية . وهو لا يذكر في هذا المقام شيئاً عن الأسلحة ، وكانت لا تزال تصنع من البرنز^(٢٧) ، وتصف الأوديسة سقى الحديد(*) ، ولكن هذه الملحمة قد وصلت إلينا في أكبر الظن من عصر متأخر من عصر الإلياذة .

وكان الحداد أمام كوره والفخراى أمام عجلته يعملان في حانوتيهما ، وكان غيرهم من الصناع الذين ورد ذكرهم في أشعار هومر — كصناع السروج ، والبنايين ، والنجارين ، وصناع الأثاث — كان هؤلاء يعملون في منازل من يكلفونهم بعمل لهم ؛ ولم يكونوا يعملون للأسواق ؛ أو للبيع . أو للكسب ؛ وكانوا يداومون العمل ساعات طويلاً ، لكنهم كانوا يعملون على مهل وليس وراءهم دافع من المنافسة الظاهرة^(٢٨) . وكانت الأسرة نفسها تقوم بصنع أكثر حاجياتها ، فكان كل فرد يعمل بيديه ، وكان

(*) « وحين يسى الحداد بلطة عظيمة أو مقشراً في الماء البارد ، كان يخرج منها أومنه ، حيس هو الذى يكسب الحديد صلابته » (٢٨)

رب الأسرة ، بل كان الملك المحلى نفسه مثل أديسيوس ، يصنع ما يحتاجه بيته من سرر وكراسى ، وما يلزمه هو من أحذية وسروج ، وكان - على عكس اليونان المتأخرين - يفخر بمهارته فى الأشغال اليدوية . ولقد كانت بنى ، وهلين ، وأندروماك وخادماتهن لا يتقطعن عن الاشتغال بالغزل والنسج والتطريز ، والأعمال المنزلية . وتبدو هلين وهى تعرض تطريزها على تلامك^(٣٠) ، أجمل منها وهى تتبختر فوق أسوار طروادة .

وكان الصنائع من الأحرار ، ولم يكونوا قط من الرقيق كما كانوا عند اليونان الأقدمين ؛ وكان من المستطاع عند الحاجة تجنيد الفلاحين للعمل فى خدمة الملك ، ولكننا لا نسمع قط بالأقنان اللاصقين بالأرض المرتبطين بها ، ولم يكن الأرقاء كثيرين ، ولم تكن منزلتهم منخفضة ، وكان معظم الرقيق من الجوارى خادومات المنازل ، وكانت منزلتهن فى الواقع لا تقل عن منزلة خادومات المنازل فى هذه الأيام إذا استثنينا أنهن كن يشتريهن أو يبعن لآجال طوال لا لتلقيام بأعمال قصيرة غير ثابتة كحالهن فى هذه الأيام . وكن فى بعض الأحيان يعاملن بقسوة ووحشية ؛ لكنهن فى العادة كن كأعضاء فى الأسرة التى يعملن لها ، يعنى بهن فى مرضهن أو عجزهن أو شيخوختهن ، وكن يرتبطن فى بعض الأحيان بعلاقات الود والمحبة مع رب الأسرة أو ربتهن . فقد كانت نوسكا Nausica تساعد جوارىها فى غسل الملابس فى النهر ، وتلعب الكرة معهن ، وتعاملهن فى جميع الأحوال معاملة الرفيقات^(٣١) . وإذا ولدتهن الجارية ولداً من سيدها كان هذا الولد فى العادة من الأحرار^(٣٢) ، غير أنه كان ككل إنسان معرضاً لأن يكون رقيقاً إذا وقع أسيراً فى الحبيب أو فى غارة القراصنة . وكان هذا أسوأ ما فى الحياة الآخرة .

والمجتمع الهومرى مجتمع ريفى ، وحتى « مدنه » لاتعدو أن تكون قرى تشرف عليها قلاع قائمة فوق التلال المجاورة لها . وكانت الرسائل تنقل على أيدى السعاة أو الرسل ، وإذا كانت المسافة طويلة نقلت الرسالة بإشارات

النار تبعث من لإحدى قلل الجبال إلى قلة أخرى^(٣٣) : وكان النقل البرى تعوقه الجبال الحالية من الطرق ، كما تعوقه المستنقعات ، والمجارى الحالية من القناطر . وكان النجازون يصنعون عربات ذات أربع عجلات لها تروس وأطر من الخشب ، ولكن معظم البضائع كانت رغم وجود هذه العربات تنقل على ظهور البغال أو الرجال ؛ وكانت التجارة البحرية أقل مشقة من التجارة البرية رغم القراصنة والعواصف ؛ فقد كانت الموانئ الطبيعية كثيرة ، ولم تكن السفن تنقطع عن رؤية الأرض إلا فى أثناء الرحلة الخطرة التى تدوم أربعة أيام من كريت إلى مصر . وكانت السفن عادة ترسو إلى البر فى الليل وينام البحارة والمسافرون فى مكان أمين على الأرض . وكان الفينيقيون فى العصر الذى نتحدث عنه لا يزالون أفضل من اليونان فى التجارة والملاحة ، وكان اليونان يثأرون لأنفسهم من هذا النقص باحتقار التجارة وإيثار القرصنة .

ولم يكن عند اليونان الهومريين نقود ، فكانوا يستخدمون بدل النقود المضروبة سبائك من الحديد ، والبرنز ، والذهب ؛ وكان الثور والبقرة يتخذان واسطة للتبادل . وكانت السبيكة الذهبية التى تزن سبعة وخمسين رطلا تسمى تالنت (من تالنتون أى وزنة^(٣٤)) . وكانت المقايضة كثيرة رغم ما كان عندهم من وسائل متعددة للتبادل ، وكانت ثروة الشخص تقلر بما عنده من بضائع وخاصة بما عنده من ماشية لا بما يملك من قطع من المعدن أو الورق قد تفقد قيمتها أو يعثرها التغير والتبدل فى أى وقت من الأوقات إذا ما بدل الناس عقائدهم الاقتصادية . وفى أشعار هومر كما فى الحياة الواقعية أغنياء وفقراء ؛ ذلك بأن المجتمع أشبه ما يكون بعربة تجمع جمع^(*) فى طريق لا مستو ولا معبد ، ومهما أتقن صنع العربة وتركيبها فإن بعض ما تحمله من متاع سوف يرسب فى قاعها ويطنفو بعضه الآخر

(*) الجمعية صوت الرعى وهو أقرب الأصوات إلى صوت العربات على الطريق الغير المعبد . (المترجم)

إلى أعلى سطحها . ولم يصنع الفخرائى آتيته كلها من طينة واحدة كما لم يصنعها كلها بنفس القوة والحاشية ؛ ومن أجل هذا لا يكاد يسهل عصر الكتاب الثانى من كنب الإلياذة حتى نستمع إلى حرب الطبقات ، وحين يستشيط ثرسيثس Ther.sites غضباً ويطلق لسانه فى أحمنون ندرك من فورنا أن هذا عرض قديم من أعراض ذلك للداء المزمن الويل (٣٥) .

إننا لنبخل إلينا ونحن نقرأ أشعار هومر أننا نعيش فى مجتمع أكثر بدائية وأقل خضوعاً للقوانين من المجتمع الذى شهدناه فى كنوسس أو ميسينى . فلقد رجعت الثقافة الآخية خطوة إلى الوراء ، وكانت مرحلة انتقال بين الحضارة الإيجية الزاهرة والعصر المظلم الذى سوف يعقب الفتح الدورى . فالحياة الهومرية فقيرة فى الفنون ، غنية فى النشاط والعمل ؛ وهى ثقافة ينقصها التفكير والتأمل ، خفية سطحية ، سريعة . وهى أصغر سناً وأصلب عوداً من أن تهتم بالأخلاق أو الفلسفة . أو لعلنا نخطئ فى حكمنا عليها لأننا نراها فى الأزمنة الحادة أو الفوضى التى أعقبت الحرب .

ولسنا ننكر أننا نشهد فى هذه الثقافة كثيراً من الصفات والمناظر الرقيقة الرحيمة ، وإنك لترى المحاربين أنفسهم كراماً ، يعطف بعضهم على بعض ، كما ترى بين الأب والابن حبا به من العمق قلر ما به من السكون والصمت . فها هو ذا أديسوس يقبل رؤوس أفراد أسرته وأكتافهم حينما يعرفونه بعد غيابة الطويل ، وها هم أولاء يقبلونه كما يقبلهم (٣٦) . وحين يعلم منلوس وتعلم هلن أن تلمكس الطفل النبيل ابن أديسيوس المفقود الذى حارب من أجلهم حرب الأبطال يبكبان ويتحسران (٣٧) . وحتى أحمنون نفسه لا يستعصى عليه البكاء فينرف من الدموع ما يذكر هومر بمجرى ماء بتلفق فوق الصخور (٣٨) . والصدقة بين الأبطال قوية متينة ، وإن كنا نظن أنه قد يكون فى العلاقة أو قل العلاقة الغرامية التى بين أخيل وپتركلوس وخاصة پتركلوس الميت

شئ من الصلات الجنسية الشاذة . وهم شديدو السخاء على الأضياف لأن « الغرباء والمتسولين أبناء زيوس »^(٣٩) والعداوى يغسلن قدمي الضيف أو جسمه ويدهنه بالزبد ، وربما قدمن له ثياباً غير ثيابه ، وهو يجد الطعام والمأوى إذا كان في حاجة إليهما ، وقد يتلقى الهدايا أيضاً^(٤٠) . ومن أقوال هلن ذات الخلد الأسيل ، وهى يضع بين يدي تلمكس ثوباً غالى الثمن : « هأنذا أقدم لك أيها الطفل العزيز هذه الهدية لتذكر بها يدى هلن في يوم زواجك المرتقب من زمن بعيد ولتلبسها زوجتك »^(٤١) : تلك صورة تكشف لنا عن الحنو الإنسانى والشعور الرقيق اللذين يخفتان حتماً في الإيالة بين نفع الحرب وقمعة السلاح .

والحرب نفسها لا تحول بين اليونان وبين حبهم القوي للألعاب . فالصغار والكبار على السواء يتبارون مباريات على جانب عظيم من الخطورة والمهارة ، تسودها العدالة والفكاهة . ويلعب خُطَّاب بِنِلي الداما ويتقاذفون الأقراص والحرايب ، ويلعب ضيوف أدسيوس الفاكهون لعبة القرص وألعاباً غريبة هى مزيج من ألعاب الكرة والرقص^(*) . ولما أحرقت جثة بركلوس بعد وفاته أقيمت بهذه المناسبة حسب العادات الآخية ألعاب كانت هى المثل الذى احتذى فى الألعاب الأولمبية ، وكانت تشمل العدو ، وقذف القرص والحربة ، والرمل بالسهم ، والمصارعة ، وسباق المركبات ، والمبارزة بالسلاح ؛ وكانت كلها تسودها الروح الرياضية الطيبة ، إذا استثنينا أنها كانت محرمة إلا على الطبقات الحاكمة ، وأن الآلهة وحدها هى التى كان يسمح لها بالغش والخداع^(٤٢) .

(*) ثم أمر السنوس Alcinous هلياس Halias ولاودماس Laodmas أن يرقصا منفردين لأن أحداً من قبل لم يجرؤ على أن يراقصهما . وأخذ كل منهما فى يد الكرة الجميلة ، المصبوغة باللون الأرجوانى ... وأخذا يلعبان . فكان أولهما يثنى جسمه كله إلى الوراء ، ثم يقذف الكرة نحو الجماهير التى لا يراها ، فيقفز الآخر فى الهواء ويلتقطها بخفة ورشاقة قبل أن تلمس قدماه الأرض . وبعد أن يمارسا لعبة قذف الكرة إلى أعلى ، يشرعان فى قذفها فيما بينهما ، وهما فى أثناء ذلك كله يرقصان فوق الأرض المشرعة

أما الجانب الآخر من الصورة فكان أقل من هذا مدعاة للسروء .
فنحن نرى أخيل يقدم « امرأة تحذق الأشغال اليدوية الجميلة » جائزة للفائز
في سباق العربات . ونرى الخيل ، والكلاب ، والثيران ، والضأن ،
والآدميين يضحي بها على كومة إحراق بتركولوس حتى يكون له بعد موته
ما يتيغيه من حسن الخدمة ومن الطعام^(٤٤) . ويحسن أخيل معاملة بريام ،
ولكنه لا يفعل ذلك إلا بعد أن يجر جسم هكتور المشوه جراً مهيناً حول
كومة الحريق . وكانت الحياة في نظر الرجل الآخى قليلة القيمة ، لا يعد
سلبها من الأمور الخطيرة ، وكانت لحظة من السرور كفيلة بردها إلى من
قضى عليه بفقدائها . وإذا ما غلبت مدينة على أمرها قتل رجالها أو بيعوا بيع
الرقيق ، واتخذت النساء خليلات إن كن حسناً ، أو رقيقات إن لم تكن
كذلك . وكانت القرصة لا تزال من المهن المحترمة ، وكان الملوكة أنفسهم
ينظمون حملات مغيرة ، تنهب المدن والقرى وتتخذ أهلها عبيداً ، ويقول
توكيديديس في هذا : « والحق أن هذا العمل أصبح أهم مورد من موارد
الرزق لليونان الأولين ، ولم تكن هذه المهنة حتى ذلك الوقت مما يجلب
صاحبها العار^(٤٥) » ، بل كانت تكسبه المجد . وكان في مقدور الأثمن العظيمة
أن تهاجم الشعوب الضعيفة المحرومة من وسائل الدفاع وتخضعها لسلطانها
دون أن يعد ذلك منها مخالفاً للعدل أو الكرامة ، شأنها في هذا شأن الأثمن
القوية في هذه الأيام . وحين يسأل أديسيوس هل هو تاجر يهتم بالملكاسب
التي يسد بها مطامعه^(٤٦) يرى في هذا القول إهانة له ؛ ولكنه يتحدث في
زهو وخيلاء عما فعله وهو عائد من طروادة إذ قل ما كان لديه من المون
فنهب مدينة إسمروس Ismarus وملأ منها سفينة بالطعام ؛ وكيف صعد في
نهر إيجيبتس Aegyptus (يقصد نيل مصر) لينهب الحقول النظرة ويسوق
أمامه النساء والأطفال الصغار ، ويقتل الرجال^(٤٧) . وملاك القول أنه .

لم تكن ثمة مدينة من المدن آمنة من هجوم القراصنة. المفاجئ عليها دون أن تعمل من جانبها ما يستفزهم أو يبرر هجومهم .

ويتصف الآخيون فضلاً عن جهم للنهب والقتل دون أن يخشوا في ذلك تأنيب الضمير ، يتصفون فضلاً عن هذا بالكذب والخداع دون حياء ؛ فأديسيوس لا يكاد ينطق بقول دون أن يكذب فيه ، أو يعمل عملاً دون يشوبه الغدو . من ذلك أنه لما قبض على دولون Dolon الجاسوس الطروادى وعده هو وديوميد Diomed أن يبقيا على حياته إذا أدلى إليهما بما يطلبانه من المعلومات ، فلما فعل قتلاه^(٣٨) . ولسنا ننكر أن غير أديسيوس من الآخيين لا يضارعونه في الغدر والخيانة ، ولكنهم لا يمتنعون عن ذلك لأنهم لا يريدون أن يغدروا أو يخونوا ، بل هم يحسدون أديسيوس ويعجبون به ، ويرونه أنموذجاً للخلق الطيب ؛ والشاعر الذى يصوره يعده بطلاً من كل الوجوه ، وحتى الإله أثينا نفسها تنفى عليه لكذبه ، وتضيف هذه الصفة إلى محاسنه الخاصة التى تحببه إليها ، وتقول له وهى تبسم وتربت عليه بيدها : « إن الذى يفوقك فى حيلك المختلفة الأنواع لا بد أن يكون ما كراً خبيثاً ، ولو كان الذى يلقاك إلهاً من الآلهة . إنك رجل ماكر فيما تسديه من نصح ، لا يقف خداعك وغدرك عند حد ؛ ويلوح أنك لا تمتنع فى بلدك نفسه عن الاحتيال وعن القصص الكاذبة الخادعة التى نجها من أعماق قلبك »^(٣٩) .

والحق أننا نحن أنفسنا نشعر بميل نحو هذا البطل الذى يشبه فى التاريخ القديم البطل منشوزن الخرافى Munchausen ، فنحن نتبين فيه وفى الشعب المجد المحتال الذى ينتمى إليه من الصفات ما يستثير الحب ؛ فهو أب لطيف رقيق القلب ، وهو فى بلده حاكم عادل « لم يسئ لأحد فى أرضه لا بالقول ولا بالفعل » . ويقول فيه راعى خنازيره : « إننى لن أجد بعد اليوم سيداً يضارعه فى شفته مهما بعدت البلاد التى أذهب إليها ، حتى لو عدت إلى

بيت أبى وأمى ! «^(٥٠) . ونحن نغبط أديسيوس على « شكله الشبيه بأشكال الآلهة المخلدin » وعلى جسمه الرياضى ، الذى يمكنه وهو فى نحو الخمسين من عمره أن يقدف القرص أبعد مما يقدفه أى شاب من شبان الفيشيان Phaeacian ؛ ونعجب « بثبات جنانه » و « بحكمته الشبيهة بحكمة جوف »^(٥١) . ولا ينقطع عطفنا عليه وهو يتمنى الموت بعد أن يئس من قدرته على أن يرى مرة أخرى « الدخان ينبعث من أرض وطنه » ، أو حين يقوى قلبه وسط ما يحيط به من أخطار وآلام بالألفاظ التى كان سقراط يجب أن يرددها : « اصبرى الآن يا نفسى ، لقد قاسيت من قبل ما هو شر من هذا »^(٥٢) . وهو فى جسمه وعقله رجل من حديد ، ولكن كل قطعة فيه مهما صغرت قطعة من إنسان ، ولهذا فلما نغفوه عنه ونتجاوز عن سيئاته .

والحق أن المعايير الخلقية عند الآخرين تختلف عن معاييرنا اختلاف فضائل الحرب عن فضائل السلم . فالرجل الآخى يعيش فى عالم مضطرب ، كدير جوعان ، على كل إنسان فيه أن يعنى بحراسة نفسه ، وأن يكون على الدوام ممسكاً بقوسه ورمحه ، قادراً على أن ينظر فى هدوء إلى الدم المراق . وفى ذلك يقول أديسيوس : « إن المعدة الجائعة لا يستطيع أحد أن يخفيها ... ومن أجلها صنعت السفن المعوجة وأعدت لتحمل الويل إلى الأعداء فوق البحر الهائج المضطرب »^(٥٣) . وإذا كان الآخى لا يجد إلا القليل من الأمن والسلامة فى بلاده . فإنه لا يرمى شيئاً منهما فى خارجها ؛ ويرى أن من حقه أن يفترس كل ضعيف . وأسمى الفضائل فى رأيه فضيلة الذكاء المقرون بالشجاعة والقسوة ، ولفظ الفضيلة فى لغته مشتق من لفظ الرجولة ومن صفة Ares أو المريخ (*). وليس الرجل الصالح عنده هو الرجل اللطيف المتسامح ،

الأمين الرزين ، المحمد الشريف ؛ بل هو الرجل الذى يحارب ببسالة وكفاية ، وليس الرجل الطالح هو الذى يدمن الشراب ، ويكذب ، ويقتل ويفسد ، بل هو الجبان الغبي أو الضعيف . لقد كان ثمة نيتشيون قبل نيتشه ، وقبل ثراسيمكس Thrasymachus بزمان طويل ، فى فجاجة العالم الأوربي وصلابته ٥

٣ - الرجال والنساء

كان المجتمع الآخى مجتمعاً أبوياً استبدادياً ، يمتزج به جمال المرأة وغضبها بحنان الأبوة وحبا القويين(*) . وكان الأب من الوجهة النظرية صاحب السلطان الأعلى ، وكان له أن يتخذ من السرارى ما يشاء(**) ، وأن يقدمهن لضيوفه ، وأن يضع أطفاله على قمم الجبال ليموتوا أو يذبحهم قرباناً للآلهة الغضاب . وهذه السلطة الأبوية المطلقة لا تستلزم حتماً أن يكون المجتمع الذى تسوده مجتمعاً وحشياً ، بل كل ما تعنيه أن هذا المجتمع لم يبلغ نظام الدولة فيه مبلغاً يكتفى لحفظ النظام الاجتماعى ، وأن الأسرة فيه تحتاج فى خلق هذا النظام الاجتماعى إلى القوى التى آلت فيما بعد إلى الدولة حين أمت حق القتل ؛ وكلما تقدم التنظيم الاجتماعى وارتقى نقص سلطان الأب ، وتفككت وحدة الأسرة ، ونمت الحرية والفردية . ولقد كان الرجل الآخى فى الحياة العملية رجلاً معقولا فى أغلب الأحوال ، يصغى فى صبر وأناة إلى فصاحة أهل منزله ويخلص إلى أبنائه .

وكان مركز المرأة فى نطاق هذا الإطار الأبوى أرقى فى بلاد اليونان

(*) لدينا آثار تدل على وجود مجتمع قبل ذلك العهد كانت السيادة فيه للأم . من ذلك ما تقولته الرواية الأثينية من أن « الأطفال » قبل سكريس Cecrops لم يكونوا يعرفون آباءهم ؛ ولنا أن نستنتج من هذا أن الأطفال كانوا ينتسبون إلى أمهم . بل إننا نرى فى الأيام الهومرية غفصها أن الآلهة التى كانت تعبد فى المدن اليونانية بصفة خاصة كانت نساء : هيرا فى أرجوس ، وأثينا فى مدينة أثينا ، وميتروپرسفون فى إليوسيس Iliousis . ولنا نرى هذه الإلهات تخضع لإله ذكر (٥٤)

(**) لقد كان لتسيوس زوجات بلغن من الكثرة درجة لم يحاول معها مؤرخ أن يترك لنا إحصاء لمن موثوقاً به (٥٥)

الهومرية منه في أيام بركليز . فهي تضطلع بدور رئيسى فى القصص والملاحم من خطبة پلپس لهيوداميا Hippodameia إلى رقة إفجينيا وحقد إلكترا ؛ فلا الحجاب ولا البيت يمانع لها من الخروج ، بل نراها تسير حرة بين الرجال والنساء على السواء ، وتشترك أحياناً فى مناقشات الرجال الجدية كاشتراك هلن مع منلوس وتلمكس . ولم يكن الزعماء الآخيون إذا أرادوا أن يستثيروا غضب الشعب على طروادة يلجئون إلى المبادئ السياسية أو العنصرية أو الدينية ، بل كانوا يستثرونه بجمال النساء ؛ ومن أجل ذلك كان وجه هلن الجميل هو الحجة التى تدرعوا بها لإثارة حرب تهدف إلى امتلاك الأرض وإلى التجارة ؛ واولا المرأة لكان بطل هومر جلفاً فقطاً ليس له هدف يعيش من أجله ، فهي تعلمه شيئاً من الأدب والمثالية ودمائة الأخلاق .

وكان الشراء طريقة الزواج ، وكان الثمن عادة أنواراً أو ما يساويها يؤديه الخطيب إلى والد الفتاة . ويحدثنا الشاعر عن « العذراء حالبة الماشية »^(٥٦) . ولم يكن الخطيب وحده هو الذى يؤدى ثمن العرس ، بل كان والدها يؤدى لها أحياناً بائنة قيمة . وكانت حفلة الزفاف عائلية واجتماعية معاً ، وكان من مظاهرها كثرة الطعام ، والرقص ، والمرح الذى تنطلق فيه الألسنة . وكانوا يسرون بالعروسين فى وهج المشاعل من حجراتهما ويحترقون بها المدينة وسط أغاني العرس العالية . وكان الشبان يرقصون وهم يدورون ، وتعلو بينهم نغمات الناي والقيثارة^(٥٧) . - ألا ما أشبه الليلة بالبارحة . ومتى تزوجت المرأة أصبحت من فورها ربة بيتها ونالت من التكریم بقدر ما تنجب من الأبناء وكان الحب بمعناه الحقيقى أى بوصفه حناناً وشوقاً - يأتى إلى اليونان كبا يأتى إلى الفرنسيين بعد الزواج لا قبله ، فلم يكن هو الشرارة التى تنطلق باتصال جسمين أو تقاربهما . بل كان ثمرة الاشتراك الطويل فى العناية بالبيت وشئونه . وفى الزوجة الهومرية من الوفاء بقدر ما فى زوجها

من عدمه ، وليس في أشعار هومر إلا ثلاث زانبات - هن كليمنسترا ، وهلن ، وأفرديتي ؛ ولكن الصورة التي يرسمها لهن لا تنطبق على المرأة العادية ، وإن انطبقت على الإلهات في تلك الأيام :

وكانت الأسرة الهومرية التي أثرت فيها هذه العوامل (إذا صرفنا النظر عن مغالاة الأفاصيص التي لا وجود لها في أشعار هومر) نظاماً سليماً يستريح له الإنسان ويسر منه ، أكثر نساؤها مهذبات رقيقات وأكثر أطفالها مخلصون أوفياء . ولم يكن عمل الأمهات مقصوداً على إنجاب الأبناء ، بل كن يقمن فيها بكثير من الأعمال ، فكن يطحن الحب ، ويمسطن الصوف ، ويغزلن ، وينسجن ، ويطرزن . ولم يكن يخطن كثيراً لأن معظم الملابس لم تكن بحاجة إلى الخياطة ، كما كان الطبخ في العادة من أعمال الرجال . وكن فضلاً عن هذه الأعمال يلدن الأطفال ويربينهم ، ويعالجن ما يصيبهم من أذى ، ويسوين ما يقوم بينهم من خصام ، ويعلمنهم عادات القبيلة وأخلاقها وتقاليدها الموروثة . ولم تكن لديهم تربية منظمة ، ولم يكونوا يتعلمون الكتابة أو الهجاء أو النحو ، ولم تكن عندهم كتب ؛ فكانت الأسرة والحالة هذه أحسن نظام يرتضيه الصبيان . وكانت البنات يتعلمن الفنون المنزلية على حين يتعلم الأولاد الصيد والحرب ؛ فكان الولد يدرب على صيد السمك وعلى السباحة ، وحرث الأرض ، ونصب الشراك وترويض الحيوانات ، وتصويب السهام والحرب ، وأن يعنى بنفسه في كل ما يعترضه من الأحداث في حياته التي لم يكن للقوانين فيها السلطان الكامل على الأهلين . وإذا شب أكبر أبناء الأسرة من الذكور وبلغ سن الرجولة أصبح في غيبة أبيه رب الأسرة المسؤول عنها ؛ فإذا تزوج جاء بزوجه إلى بيت أبيه . وهكذا تتجدد الأجيال جيلاً بعد جيل ، يتغير في خلالها أفراد الأسرة على مر الأيام وتبقى الأسرة محتفظة بهما عدة قرون ، تضع في بوتقة البيت التي ينصر فيها الأفراد قواعد النظام والأخلاق التي لا بد منها لقيام الحكومات على اختلاف أنواعها .

٤ - الفنون

وترك الآخيون إلى التجار والكتبة من أهل الطبقة الدنيا فن الكتابة الذى تلقوه فى أغلب الظن من بلاد اليونان الميسينية ، ذلك أنهم كانوا يفضلون الدم عن المداد واللحم عن الطين ، ولسنا نجد فى أشعار هومر كلها إلا إشارة واحدة للكتابة^(٥٨) . ونجدها فى سياق فذ واضح الدلالة ، وهو أن لوحة مطوية تعطى لرسول ويؤمر فيها من سوف يتلقاها بأن يقتل حاملها . وإذا ما وجد الآخيون وقتاً يقضونه فى ممارسة الأدب فإن ذلك لم يكن إلا حين يجدون بين الحروب والغارات فترة من الوقت يركنون فيها إلى السلم ، ووقتئذ يجمع الملك أو الأمير أتباعه حوله ، يولم لهم وليمة ويدعو شاعراً أو مغنياً جوالاً ينشدهم على قيثارته شعراً ساذجاً يقص أعمال الأبطال من أسلافهم الأولين . وكان ذلك شعر الآخيين وتاريخهم . ولعل هومر قد أراد كما أراد فيدياس أن ينقش صورته على ملاحه فأخذ يقص علينا كيف طلب ألسينوس ملك القباشانيين أن يحى أديسيوس بشيء من هذه الأغاني : « ادع إلينا المنشد الإلهى دمدوكس Demodocus ، لأن الله قد اختصه دون غيره بالمهارة فى الغناء ثم اقترب الرسول بقود المنشد القدير الذى تحبه إلهة الشعر أكثر من سائر الناس ، فوهبته من نعمتها وسلطت عليه من نعمتها ، فحرمته قوة البصر ولكنها وهبته نعمة الصوت الجميل »^(٥٩) .

والفن الوحيد الذى يعنى به هومر غير فنه هو طرق الحديد وتشكيله فهو لا يذكر شيئاً عن التصوير ولا النحت ولكنه يستجمع كل ما أوتى من إلهام ليصف المناظر المصورة بالجوهر أو المزركمة على ترس أخيل ، أو المنقوشة نقشاً بارزاً على دبوس أديسيوس الذى يحلى به صدره . وإذا تحدث عن العمارة كان حديثه قصيراً ولكنه يلتقى على هذا الفن كثيراً من الضوء . ففى وسعنا أن نستدل من حديثه على أن المساكن العادية فى



(شكل ٧) محارب
من ميدل آفانيا في إيجينا
(متحف ميونخ)

عصره كانت تشاد من اللبن على أساس من الحجارة ، وأرضها من الطين المطروق بالأقدام ، والذي كان ينظف بحكه بأداة خشنة ؛ وكان السقف يتخذ من الغاب تعلوه طبقة من الطين لا تميل إلا بالقدر الذي يمكن الأمطر من النزول . وكانت الأبواب مفردة أو مزدوجة ، وقد تكون لها مزاليج أو مفاتيح^(١٠) . أما المساكن التي هي أعلى من هذه درجة فكانت جدرانها تغطي بالجبس الملون ، وتزين حافاتها أو تنقش ، وتعلق عليها الأسلحة والروس والنسيج المنقوش . ولم يكن في الدار مطبخ ، ولا مدخنة ، ولا نوافذ ، وكان في سقف بهوها الأسط فتحة يخرج منها بعض الدخان المنبعث من الموقد ، وتخرج بقيته من باب الدار ، أو تستقر صنابجا على الجدران . وكانت الحمامات من المرافق التي تحتويها بيوت الأغنياء ، أما غيرهم فكانوا يقنعون بؤدا . من الخشب بدل الحمام . وكانوا يتخذون أثنائهم من الخشب الثقيل ، وكثيراً ما كان يصقل وتحفر فيه أشكال فنية جميلة . وقد صنع إكاليوس لينبلي كرسيّاً ذا متكأ مطعماً بالعاج والمعادن النفيسة ، وكذلك صنع أديسيوس له ولزوجته سريراً ضخماً متيناً قدّر له أن يبقى مائة عام ١٠٠ .

ومن خصائص هذا العصر أن أهله يُغفلون الهياكل ويوجهون كل عنايتهم إلى تشييد القصور ، بعكس عصر بركليز فإن أهله كانوا يهتمون القصور ويصرفون جهودهم في بناء الهياكل . فنحن نسمع عن « بيت باريس الفخم » الذي شاده ذلك الأمير بمعمونة أمهر المهندسين في طروادة^(١١) ، وبقصر الملك ألسنوس الفاخر الذي كانت جدرانه من البرنز ، وطفه من عجين الزجاج الأزرق ، وأبوابه من الفضة والذهب ، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تصدق على الشعر أكثر مما تصدق على فن العمارة . ونسمع كذلك الشيء القليل عن بيت أجمنون الملكي في ميسيني كما نسمع الشيء الكثير عن قصر أديسيوس في إثاكا . وقد كان لهذا القصر دهليز أمامي مرصوف بعضه بالحجارة ، ويحيط به سور مجصص ، ويزدان بالأشجار ومذاود الخلال ، وكومة من الروث الساحن ينام عليها أرجوس كلب أديسيوس في

ضوء الشمس(*) . ويؤدى إلى داخل القصر مدخل ذو عمد ينال فيه العبد والزائرون فى كثير من الأحيان ، أما داخل القصر نفسه فكان يحتوى على حجرة للانتظار تؤدى إلى بهو أوسط يستند إلى عمد يصل إليه الضوء من قمته إلى السقف ، وفى بعض الأحيان من فتحة أخرى بين طنف البناء وعوارضه لى فوق الأعمدة . وكانت مجامر نحاسية مستقرة على قواعد عالية تضىء البيت بضياء مضطربة غير مستقرة . وكان فى وسط البهو مدفأة الدار تجتمع الأسرة حول نارها المقدسة أثناء الليل للدفء والطرب ، وللتحدث عن أخبار الجيران ، وعاد الأطفال ، وتقلبات الأيام .

٥ - الدولة

ترى كيف كان هؤلاء الآخيون الأشداء السريعو الانفعال يُحكمون ؟ لقد كانوا فى السلم تحكمهم الأسرة وفى الأزمات تحكمهم العشيرة . والعشيرة جماعة من الناس ينتسبون إلى أصل واحد ويدينون بالطاعة إلى رئيس واحد ، وحصل هذا الرئيس هو منشأ المدينة ومركزها ، حتى إذا ما أصبح سلطانة سنة متبعة وشريعة معترفاً بها ، تجمعت حول الحصن عشيرة بعد عشيرة حتى يتكون من مجموعها مجتمع سياسى من ذوى القربى . وإذا تطلب الرئيس عملاً إجماعياً من عشيرته أو مدينته دعا أحرارها الذكور إلى اجتماع عام وعرض عليهم اقتراحاً قد يقبلونه وقد يرفضونه ، ولكن أعظم الأعضاء شأنًا هم الذين يستطيعون أن يقترحوا تغييره . ولقد كانت هذه الجمعية القروية العنصر الديمقراطي الوحيد فى هذا المجتمع الأرستقراطي الإقطاعى ، وكان أعظم أعضائها فائدة للدولة أفصحهم لساناً وأقدرهم على التأثير فى عامة الشعب . ولما لنشهد منذ ذلك الوقت البعيد فى الشيخ نسطور الذى « يسيل صوته من لسانه أحلى من الشهد^(٦٢) » ، وفى أديسيوس المختال الذى تقع

(٥) يموت أرجوس من فرط الطرب حين يرى سيده بعد أن غاب عنه عشرين عاماً .

كلماته « على الناس وقح هشائش الناليج^(٦٣) » ، نشهد فيهما بداية ذلك السيل من الفصاحة الذى قدر له أن يبلغ فى بلاد اليونان مستوى أرفع مما بلغه فى أية حضارة أخرى ، والذى قضى فى آخر الأمر على هذه الحضارة القضاء الأخير ،

وإذا تطلب الأمر أن تعمل العشائر مجتمعة فإن رؤساءها يطيعون أوامر أقوامهم سلطاناً ، ويتخذونه ملوكاً عليهم ، ويدنون له بالطاعة هم وجيوشهم من الأحرار وأتباعهم العبيد . وكان أقرب الرؤساء إلى الملك مسكناً ، وأكبرهم مقاماً عنده ؛ يسمون « صحابة الملك » ، وهذا هو الاسم الذى أطلق عليهم أيضاً فى مقدونية أيام فليب وفى معسكر الإسكندر . وكان هؤلاء الأعيان يستمتعون فى البول boule أو المجلس بحرية القول ويخاطبونه حين يوجهون له القول على أنه « الأول بين الأنداد » . ومن هذه الهيئات المختلفة - الجمعية العامة ، ومجلس الأعيان ، والملك - نشأت دساتير العالم الغربى الحديث كله على كثرتها واختلاف أنواعها وأسماؤها .

وكان للملك سلطان عظيم ولكنه ضيق الحدود . فهو ضيق فى الرقعة التى يظلمها لأن مملكته صغيرة ، وهو ضيق فى زمانه لأن الملك معرض لأن يخلعه المجلس أو أن يخلع استناداً إلى حق سرعان ما اعترف به الآخيون وهو حق من عساه أن يكون أقوى من الملك سلطاناً . وفيما عدا هذا فقد كان حكم الملك وراثياً وكانت حدود سلطانه غير واضحة المعالم . وهو قبل كل شيء زعيم عسكري شديد العناية بجيشه لأنه إذا عدمه تبينت للناس أخطاؤه ، وهو يحرص على أن يكون هذا الجيش حسن العدة ، والطعام ، والتدريب ، لديه ذخيرة من السهام المسمومة^(٦٤) ، والحراب ، والخوذ ، والجراميق ، والرماح ، والتروس ، والدروع ، والعربات الحربية . وهو الحكومة بأجمعها طالما كان الجيش يحميه ، يجمع فى يديه التشريع والتنفيذ والقضاء ، وهو كاهن الدين الأكبر الذى يقرب القرابين باسم الشعب ، وأمره هى القانون ، وأحكامه نهائية لا معقب لها ، ولم يكن لفظ القانون قد وجد بعد^(٦٥) . ومن

تحت المجلس الذى يجتمع أحياناً ليفصل فى المنازعات الخطيرة ؛ وكأنما كان هذا المجلس يضع التقاليد التى تسير عليها جميع المحاكم فيما بعد ، فكان يبحث عن السوابق ويحكم على غرارها . وكان للسوابق الغلبة على القانون لأن السابقة مستمدة من العادة ، والعادة هى الأخت الكبرى للقانون تنازعه سلطانة : على أن المحاكمات على أنواعها نادرة فى المجتمع المومرى ، وقلما نسمع فيه عن هيئات عامة للقضاء ، بل كان على كل أسرة أن تدفع الأذى عن نفسها وتثار لنفسها ، وكانت أعمال العنف كثيرة تسود المجتمع .

ولم يكن من عادة الملك أن يجيى الضرائب ليقم بها دعائم ملكه ، بل كان يتلقى من حين إلى حين « هدايا » من رعاياه ؛ ولو أنه كان يعتمد على هذه الهدايا وحدها لكان ملكاً فقيراً بحق ، أما مورده الأكبر فكان فى أغلب الظن مستمداً من الرسوم التى يفرضها على ما ينتزعه جنوده وسفنه من الأسلاب فى البر والبحر . ولعل هذا هو السبب من أجله وجد الآخيون فى عصر متأخر كالقرن الثالث عشر قبل الميلاد فى مصر وفى كريت . فكانوا فى مصر قراصنة غير ناجحين وفى كريت فاتحين عابرين . ثم نسمع عنهم فجأة وهم يستثيرون غضب الشعب بقصة عن السبى المذل ؛ ويجمعون بذلك قوى القائل جميعها ، ويجندون مائة ألف محارب ، ويبحرون بأسطول ضخمة منقطع النظير مكون من نحو ألف سفينة ليحاربوا حظهم ضد حراب آمية على سهول طروادة وتلها .

الفصل الرابع

حصار طروادة

نرى هل حوصرت طروادة بحق ؟ لسا نعلم أكثر من أن كل مؤرخ يوناني وكل شاعر يوناني ، وأن كل سجل في معبد يوناني إلا القليل الذي لا يستحق الذكر ، وكل قصة يونانية — من أن هذه كلها تسلم بلا جدال بأن طروادة حوصرت ؛ وأن علم الآثار قد كشف لنا عن المدينة المحرقة مضاعفة عدة مرار ؛ وأن القصة وأبطالها لا تزال في هذه الأيام كما كانت في آخر القرن الماضي تعد في جوهرها قصة صحيحة^(٦٦) : وقد جاء في نقش مصرى خلفه رمسيس الثالث أن « الجزائر كانت قلقة مضطربة » حوالى ١١٩٦ ق . م^(٦٧) ، وفي بلنى إشارة إلى رمسيس « الذى سقطت طروادة في أيامه »^(٦٨) . ويرجع إرتشثينز Eratosthenes العالم الإسكندرى العظيم تاريخ هذا الحصار إلى عام ١١٩٤ ق . م مستنداً في ذلك إلى الأنساب المتواترة التى نسقها المؤرخ — الجغرافى هيكاتيوس Hecataeus في أواخر القرن السادس قبل الميلاد .

ويتفق الفرس الأقدمون والفينيقيون مع اليونان في قولهم إن تلك الحرب العظمى قد استمرت نازها لأن أربعة من النساء الحسان قد اختطفن عن بلادهن . فالمصريون على قولهم اختطفوا أبو Io من أرجوس ، واليونان اختطفوا أوروبا Europa من فينيقية ومبيديا من كلكتيز Colchis ؛ أليس من الإنصاف والحالة هذه أن يختطف باريس^(*) هلى^(٦٩) ؟ ويأبى استسيكورس

(•) لا حاجة بنا إلى القول بأن هلى كانت ابنة زيوس ، فقد اتخذ صورة بجمة وأغوى ليدا زوجة تينداريوس Tyndareus . لك أسهارة .

فى سنه الأخرى بعد أن تاب وأناب ، كما يأبى هيرودوت ويورديدز من بعده ، أن يعترفأ بأن هلن قد غادرت بلادها إلى طروادة ؛ وكل ما فى الأمر أنها ذهبت إلى مصر مكرهة وأقامت فيها اثنى عشرة سنة حتى جاءها منلوس . ويتساءل هيرودوت قائلاً : هل من الناس من يصدق أن الطرواديين يحاربون عشر سنين من أجل امرأة واحدة ؟ ويعزو يورديدز لإرسال الحملة إلى ازدياد السكان فى بلاد اليونان أكثر مما تحمله مواردها ، واضطرار أهلها بسبب هذه ازيادة إلى الهجرة والتوسع (٧٠) . ألا ما أقدم الأسباب الحديثة التى تبرر بها الرغبة فى القوة والسلطان .

على أنه لا يبعد أن تكون قصة شبيهة بهذه القصة قد استعين بها على جعل هذه المغامرة مستساغة لدى اليونان العادى ، وذلك بأن الناس فى حاجة إلى الألفاظ الطنانة إذا أريد منهم أن يضحوا بحياتهم . ومهما تكن أسباب الحرب الظاهرة ، فإن الذى لا شك فيه أن حقيقة أمرها وجوهرها لم تكن إلا نزاعاً بين طائفتين تتنازعان السيطرة على مضيق المهنيت والأراضى الغنية المحيطة بالبحر الأسود ، وكانت بلاد اليونان بأجمعها وغرب آسية على بكرة أبيها ترى أنها نزاع حاسم ؛ واحتشدت أمم اليونان الصغيرة لمساعدة أجمنون ، كما أرسلت شعوب آسية الصغرى العون بعد ائمون لطروادة . وكانت الحرب فى حقيقة أمرها بداية الكفاح الذى تجدد فى مراثون وسلاميس ، وعند إسوس وأرييلا ، وعند تور وغرناطة ، وعند لينتو وثينا ...

وليس فى وسعنا أن نذكر من أحداث الحرب وما بعدها غير ما يقصه علينا الشعراء اليونان ومؤلفو المسرحيات منهم ، ونحن نقبل ما يقولون على أنه أدب أكثر مما هو تاريخ ، وهذا فى حد ذاته مبرر قوى لاعتباره جزءاً من قصة الحضارة . فنحن نعلم أن الحرب بشعة وأن الإلياذة جميلة ، وأن الفن (إذا عكسنا قول أرسطاطاليس) قد يحمل الرعب - ويظهر تبعاً لذلك -

بما يخلعه عليه من معنى جميل وشكل ظريف . ولسنا نقصد بقولنا هذا أن الإلياذة قد وصلت إلى حد الكمال في شكلها ، إذ الحقيقة أن تركيبها مهلهل غير رصين ، وأن القصص فيها متناقض تارة وغامض تارة أخرى ، وأن خاتمها ليست خاتمة بالمعنى الصحيح . غير أن كمال كل جزء على حدته يعوض ما في مجموعها الكلى من اضطراب ، والقصة رغم عيوبها الصغرى لا تنقل في مستواها عن مسرحيات التاريخ العظمى ، ولعلها لا تنقل عن مستوى التاريخ نفسه .

(١) (*) نرى اليونان في مستهل القصيدة وقد قضوا في حصار طروادة تسع سنين دون أن يظفروا بها ؛ وقد غلبهم اليأس والحزن إلى الوطن ، وفكك بهم المرض . وقد وقفوا طويلاً عند أوليس Oulis لأن المرض وسكون الريح في البحر قد حالا بينهم وبين مواصلة السير ، وأثار أجمنون غضب كلتمنسترا وهياً السبيل لسوء مصيره بأن ضحى بابتها لإفجينيا لكي تهب الريح . وكان اليونان قد وقفوا في أماكن متفرقة في طريقهم ليأخذوا حاجتهم من الطعام والسراري ، فأخذ أجمنون الحساء كريسيس Chryses وأخذ أخيل بريسيس البارة الجمال ؛ ثم يقول عراف إن أبلو يمنع النصر عن اليونان لأن أجمنون قد اعتدى على عفاف ابنه كاهنه كريسيذ Chryseis . فيرد أجمنون كريسيس لأبيها ولكنه يواسى نفسه ويخلق في القصة موقفاً مثيراً بأن يرغم بريسيس على أن تفارق أخيل وتحل محل كريسيس في الخيمة الملكية . ويدعو أخيل الجمعية العامة إلى الانعقاد ، ويشكو إليها أجمنون وهو غاضب ثائر ، وينطق بأول كلمة في الإلياذة ويثير الموضوع الذي يتردد فيها مراراً وتكراراً ، ويقسم أنه لن يمدد أو جنوده يداً لمساعدة اليونان . (٢) ثم تنتقل بعدئذ إلى استعراض سفن الجيوش المتجمعة وقبائلهم ، ثم (٣) نشاهد منلوس المتعجرف يبارز باريس

مبارزة يراد بها وضع حد للقتال ؛ ويتهادن الجيشان مهادة المتحفزين ، ويشترك بريام مع أجمنون في تقديم القرбан إلى الآلهة . ويظفر منلوس بباريس ولكن أفرديتى تنقذه وتختطفه في سحابة ثم تلقبه على فراش زوجته بعد أن تعطره وتمسحه بالمساحيق الربانية . وتأمره هلن أن يعود إلى القتال ولكنه يعرض عليها بدلا من هذا أن « يصرفا الوقت في الفراش » . وتتغلب على هلن شهوتها فتجيبه إلى طلبه (٤) ويعلن أجمنون انتصار منلوس ، ويلوح أن الحرب قد وضعت أوزارها ، ولكن الآلهة تعقد مجلساً على جبل أولمبس للتشاور في الأمر كما يتشاور البشر ، وتقرر أنها في حاجة إن أن يسفك فوق ما سفك من الدماء . ويقترح زيوس لمصلحة السلم ولكنه يسحب صوته وينقلب مرتاعاً حين توحه زوجته هيرا خطابها إليه ، وتقترح أن تسمح لزيوس بأن يدك ميسيني وأرجوس واسبارطة دكا إذا وافق على تدمير طروادة ؛ ويبدأ القتال من جديد ويهلك عدد كبير من الرجال تمزق أجسامهم السهام ، أو الحراب أو السيوف « ويخيم الظلام على أعينهم » .

(٥) وتشترك الآلهة في هذه اللعبة المرحية لعبة التقتيل والتقطيع ، فتتخذ حربة ديوميد في جسم أريس إله الحرب الرهيب ، ويصبح صبيحة كأنها صادرة من تسعة آلاف رجل » ، ويسرع إلى زيوس ليثبه شكواه .

(٦) وتعقب ذلك فترة يودع فيها هكتر البطل الطروادى زوجته أندرمكا وداعاً حاراً قبل عودته إلى القتال . وتخطبه بصوت رقيق قائلة : « حبيبي ، إن بسالتك ستؤدى إلى هلاكك ؛ إنك لا ترحم طفلك ولا ترحمنى ، أنا التى سأكون عما قريب أرملة ، لقد قتل أبى وأمى وإخوتى جميعاً ، ولكنك أنت يا هكتر أبى وأمى ، وأنت زوج شبابى ، فأشفق علىّ إذن وأقم هنا فى البرج » . فيرد عليها بقوله : « إني أعلم حق العلم أن مآل طروادة هو السقوط ، وأرى بعين الخيال أحزان إخوانى وأحزان الملك ؛ غير أنى لا أحزن من أجلهم ؛ أما الذى يكاد يزلزل كيانى فهو أن أراك أسيرة رقيقة فى أرجوس ؛ ولكنى مع هذا لن أحجم

عن القتال^(٧١) » ويصرخ ابنه الطفل أستياناكس Astyanax ، الذى قُدر له أن يلقيه اليونان للتصرون من فوق أسوار المدينة بعد قليل فيسقط على الأرض جثة هامدة، يصرخ مرتاعاً حين يبصر الريش يتأوج في خوذة أبيه ، فيرفع البطل خوذته حتى يستطيع أن يضحك ، ويكي ويصلى للطفل الحائر المندهرش . ثم يتخذ طريقه إلى المعركة : (٧) ويبارز أجاكس Ajax ملك سلاميس . ويستमित البطلان في القتال ثم يفترقان في المساء بعد أن يتبادلا الثناء والهدايا . يالها من زهرة مجاملة تسبح في بحر من الدماء . (٨) وبعد أن يقضى الطرواديون يوماً كاملاً ينتقلون فيه من نصر إلى نصر بأمر هكتور المحاربون بالكف عن القتال ليستريحوا .

هكذا خطب فيهم هكتور : وحياه الطرواديون بأعلى أصواتهم وصفقوا نه بكفهم . ثم رفعوا النير عن جيادهم حربية والعرق يتصب من أجسامهم وعقل كل منهم جواديه بالنسيور بجوار عربته ، وجاء من المدينة بالثيران والضأن السمين ؛ وقدم هكتور لهم النبيذ وهو يخاطبهم بأعذب الألفاظ وأرقها .. وجاءهم بالحلب من البيوت ، وجمع الرجال وقود النار ، وحلّ لغراء لرائحة الذكية من السهل إلى السماء ، وسهر من كانوا على جانبي الميدان الليل الطويل يملأ الأمل صدورهم ، وأوقدوا فار المراقبة ، وعلا لهب النيران الكثيرة التى أوقدها الطرواديون مروضو الخيول بجوار اليوم بين السفن السود ونهر زثنوس Thanathus ، وتلاّأت تلاّأت النجوم حول آية الليل ، فكان منظرًا من أعجب المناظر ، وسكنت الريح ، ولاحت قمم الجبال والرووس ، وظهرت الخلوات التى بين الجبال . وبدت السماء الواسطة ذات الجلال ، وتلاّأت نجومها التى بخطتها الحصر على قلب الراعى الذى أضناه النصب . وفى هذه الأثناء كانت خيل القتال المتعة تلوك القمح والشعير الأبيض بالقرب من مركباتها تنتظر مقدم الفجر فوق عرشه الجميل^(٧٢) .

(٩) ويشير نسطور ملك پيلوس الإيلية على أبحمنون أن يرد بريسييس

إلى أخيل ، ويحبّه أجمنون إلى طلبه ، ويعد أخيل بأن يعطيه نصف بلاد اليونان إذا انضم مرة أخرى إلى المحاصرين ، ولكن أخيل يفضل غاضباً . (١٠) وبفاجئ أديسيوس وديوميد معسكر الطرواديين بهجمة في أثناء الليل يقتلان فيها اثني عشر من رؤساء العشائر . (١١) ويقود أجمنون جنده ويستبسل في القتال ويُجرح ثم ينسحب من الميدان . (١٢) ويلتف الأعداء حول أديسيوس فيقاتلهم قتال الأسود ، ويشق له أجاكس ومنلوس الطريق وينجيه ليقاسي فيما بعد حياة مريرة (١٢ - ١٣) ويتقدم الطرواديون إلى الأسوار التي أقامها اليونان حول معسكرهم . (١٤) فتزعج هيرا وتنصم على إنقاذ اليونان ، فتدهن بالزيت وتتعطرو تلبس أفخر الثياب ، وتتمنطق بمنطقة أفرديتي المقوية ، وتغوى زيوس فيضاجعها ، وبعدد بوسيدن في هذه الأثناء إلى مساعدة اليونان على رد الطرواديين (١٥) وتظل الحرب سجالاتاً فيصل الطرواديون إلى سفن اليونان ، وهنا تصل حماسة الشاعر ذروتها وهو يقص علينا كيف كان اليونان يحاربون مستبشرين وهم يراجعون تراجعاً سيؤدي بهم إلى الهلاك .

(١٦) ويقنع پتركلوس حبيب أخيل هذا الطبل فيسمح له بأن يقود جنوده لمحاربة طروادة . ويقتله هكتور بيده . (١٧) ويحارب أجاكس حرباً شديدة فوق جثة الشاب القتيل . (١٨) ويسمع أخيل بموت پتركلوس فيصمم آخر الأمر على القتال ، وتقع أمه الإلهة ثيتيس الحدد الإلهي هفستوس Hephaestus بأن يصنع له أسلحة جديدة ودرعاً سابقة ضخمة . (١٩) ويتصالح أخيل مع أجمنون ، (٢٠) ويقاتل إنياس ويوشك أن يقتله لولا أن بوسيدن ينقذه لبتخذ منه فرجيل موضوعاً لشعره . (٢١) ويقتل أخيل عدداً كبيراً من الطرواديين ويقذف بهم إلى الجحيم مودعين بخطب يتحدث فيها عن نسبهم . وتواصل الآلهة القتال : فتقذف أثينا أريس بحجر يطرحه أرضاً وتحاول أفرديتي وهي في زي جندي أن تنقذه ، فتضربها أثينا ضربة على

صدرها الجميل تلقبها على الأرض . وتصفع هيرا أرتيميس على أذنها ،
أما بوسيدون وأبلو فيكتفیان بحرب الألفاظ . (٢٢) ويولى الطرواديين
الأدبار من أخيل عدا هكتر وحده ؛ ويشير بريام وهكيبا على هكتر أن
يبقى وراء أسوار المدينة ولكنه يرفض مشورتها ، حتى إذا تقدم أخيل نحوه
ولى الأدبار فجأة ؛ ويطارده أخيل حول أسوار طروادة ويطوف بها ثلاث
مرات ؛ ثم يقف هكتر ليلاقي عدوه فيخر صريعا .

(٢٣) وفي ختام هذه المسرحية تحرق جثة بتركولوس بالمراسم الفخمة ؛
ويضحي أخيل من أجله بعدد كبير من الماشية ، وبأثنى عشر من أسرى
الطرواديين وبشعره هو الطويل . ويقام اليونان الألعاب تكريماً له
و (٢٤) يجر أخيل جثة هكتر خلف مركبته ثلاث مرات حول كومة
الحريق . ويقبل بريام بموكبه وحزنه يرجو أن يسمح له بجثة ولده ،
ويرق قلب أخيل له ، ويرضى بعقد هدنة تدوم اثني عشر يوماً ، ويسمح
للملك الشيخ بأن يأخذ جثة ولده بعد تطهيرها ودهنها بالزيت ، ويعود بها
إلى طروادة .

الفصل الخامس

العودة إلى الوطن

وهنا نختتم القصيدة العظيمة خاتمة فجائية ، كأن الشاعر قد قام بنصيبه من القصة العامة ورأى من واجبه أن يترك ما بقي منها ينشده شاعر غيره . ونقص الأداب بعدئذ كيف رمى باريس أخيل وهو واقف إلى جانب المعركة بسهم اخترق مؤخرة قدمه ، وهو الجزء الوحيد من جسمه الذى توتر فيه السهام ، فأرداه قتيلًا ، وكيف سقطت طروادة آخر الأمر نتيجة لخدعة الحصان الخشبي .

وكان النصر الذى أحرزه المنتصرون سبباً فى هزيمتهم ، فعادوا منهكين محزونين إلى أوطانهم بعد حنين إليها طويل . ونحطم كثير من السفن التى أفلتهم ، وارتطم بعضها بشواطئ البلاد الأجنبية وأنشأ من فيها مستعمرات يونانية فى آسية وجزائر بحر إيجه وإيطاليا (٧٣) . ولما أقبلت هلن « الإلهة بين النساء » على منلوس بجلال جمالها الهادى عاد حبها إلى قلبه وكان قد أقسم أن يقتلها حين يظفر بها ، وسره أن يعود بها إلى اسبارطة لتكون ملكته فيها . ولما عاد أجهنون إلى ميسينى « عاتق أرض بلاده وقبلها وذرفت عينه الدمع السخين (٧٤) » ولكن كلفتمسترا تزوجت ابن عمه إجشس وأجلسته على العرش ، فلما أن دخل أجهنون القصر قتلا .

وأدعى إلى الأسى من هذا عودة أديسوس ، وأكبر ظننا أن شاعراً آخر غير هومر قد قص قصته فى ملحمة أقل قوة وبطولة من الإلياذة (*) ،

(*) « وأكبر ظن أن أساس القصة التى تزورها أدبيته هو ما ذكره هيرودوت فى التاريخ من الإلياذة . ذلك أن أسطورة الملاح أو الغارب الحول الذى لا تموت فيه حين هودله أقدم يقيناً من قصة طروادة ، ولا يكاد يخالف منها أدب من آداب الأمم كلها (٧٥) » -

ولكنها أسلس منها وأرق وأجل ، وتقول الأديسة إن أديسيوس تحطمت سفينته على ساحل جزيرة أجيچيا Ogygia ، وهي جزيرة مسحورة شبيهة بجزيرة تيمنى Tahiti ، تحكمها ملكة إلهة تدعى كلبسو Calypso ؛ شغفها حباً فاستبقته عندها ثمانى سنين يحن فيها أشد الحنين إلى زوجته بنلى وابنه تلمكس اللذين ينتظرانه فى إثكا على أحر من الجمر .

وتقنع أثينة زيوس بأن يأمر كلبسو بإطلاق سراح أديسيوس ، وتطرب الإلهة إلى تلمكس وتستمع إلى قصته الساذجة وتعطف عليه ، فتعرف كيف أقبل أمراء إثكا والجزائر الخاضعة لها على بنلى يتوددون لها ويسعون إلى تزواجها ليظفروا بعد ذلك الزواج بعرش إثكا ، وكيف يعيشون فى قصف ومرح فى قصر أديسيوس ويستمتعون بغيراته (٢) ويأمر تلمكس الخطاب بأن يعودوا إلى ديارهم ولكنهم يسخرون من شبابه ، فيخرج سراً على ظهر سفينة يبحث عن أبيه ، وتخزن بنلى لبعد زوجها وابنها ، وتستعمل خطاياها بأن تعدم أنها ستزوج واحداً منهم بعد أن تم نسيج غزلها ، ولكنها تنقض منه فى الليل ما عمله بالنهار (٣) ويزور تلمكس نسطور فى پيلس و (٤) منلوس فى اسبارطة ولكن أحداً منهما لا يستطيع أن يبدله على مكان أبيه . ويرسم الشاعر صورة جذابة لهن وقد استقرت فى بيتها خاضعة ولكنها لا تزال تستمتع بجمالها الربانى ، وقد غفر لها زوجها خطاياها من زمن بعيد ، وتقول إنها حين سقطت طروادة كانت قد سئمت المقام فى المدينة (٥) .

= نأديسيوس اليونان هو دمينه سنوح Sinuhe وسندباد ، وريبن كروزو ، وإثكا أردن Enoch Arden . لما الأماكن الواردة فى القصيدة هى من الأسرار المهيبة للعقول التى لا يجد أصحابها ما يرضون فيه أوقات فراغهم .

(*) - وتقول الرواية اليونانية إن مواطنها قد اتخذوها بعد موتها إلهة لم وعبدوها ، وكان من العقائد الشائعة فى بلاد اليونان أن الآلهة تماكب من يستطيعون فى عرضها . بل إنهم قد أشاءوا إلى أن هومر نفسه إنما أصيب بالعمى لأنه تغنى بالفرية القائلة بأن هن قرت إلى طروادة يعدل أن يقول إنها اختطفقت وحلت إلى مصر رغم إرادتها (٧٧)

(٥) وهنا يدخل أديسيوس القصة لأول مرة . فقد كان « يجلس على ساحل جزيرة كليبسو » وقد جف الدمع من عينيه وغاض ماء حياته الحلوة من شدة حزنه وحينه إلى وطنه . نعم إنه كان يقضى ليله في الكهوف الجوفاء مضطجعا على الرغم منه بجوار كليبسو ، ينام وهو كاره بجوار الحورية المشتاقة ، ولكنه كان يقضى النهار جالسا على الصخور والرمال ، يبكي ويتوجع وينظر إلى البحر المضطرب (٧٨) « وتستيقه كليبسو ليلة أخرى تأمره بعدها أن يصنع رمثا ويبحر فيه منفردا .

(٦) وبكافح أديسيوس البحر كفاحا طويلا ثم ينزل في أرض فيشيا الخرافية (ولعلها كرسيرا - كورفو Corcyra - Corfu) حيث تعر عليه العذراء نوسكا Nausicaa وتأخذ إلى قصر أبيها الملك السنوس ، وتعشق الفتاة البطل الجرىء المقتول العضلات ، وتفضى بسرّها إلى أترابها فتقول هن : « استمعن إلى أيتها العذاري ذوات الأذرع الجميلة البيضاء . . . لقد كان هذا الرجل يبدو منذ قليل غير وسيم ، أما الآن فهو في نظري كالآلهة التي تستقر في السماء الواسعة . ألا ليت رجلا كهذا يصبح لي زوجا ، يقيم هنا ، ألا ليته يرضى أن يقيم هنا معي (٧٩) » . (٧ - ٨) ويعجب السنوس بأديسيوس أشد الإعجاب فيعرض عليه ان يزوجه نوسكا ، ويعتذر أديسيوس ولكنه يصره أن يقص عليه قصة عودته من طروادة .

(١١) فيقول للملك إن سفته قد دفعها الرياح عن طريقها إلى أرض أكلة (اللوطس) ، وإن هؤلاء قدموا لرجاله فأكهة اللوطس الحلوة فنسى الكثيرون منهم أوطانهم وحينهم إليها حتى لم يجد أديسيوس بد من أن يرغمهم على العودة إلى سفنهم . وساروا من هنا إلى أرض السيكاوبين الجبابرة العور ، الذين لا يقومون بعمل ولا يخضعون لقانون ، ريعيشون في جزة تكثر فيها الحبوب والفاكهة البرية . ووقعوا في كهف السيكاوب

پوليڤيڤميس Polyphemus فأكل عدداً منهم ، وأنقذ أديسيوس من بقي بأن أنام الوحش الجبار بعد أن أسكره ، ثم حرق بالنار عينه الوحيدة : (١٠) ثم ركب الجوالون البحر مرة أخرى وأوغلوا فيه حتى وصلوا إلى أرض الستريجونيين Laestrygonians ، وكان هؤلاء أيضاً من أكلة اللحوم البشرية فلم تنج منهم إلا سفينة أديسيوس . ووصل هو ومن كان معه في السفينة إلى جزيرة إينيا Aenea حيث أغوت سرس Circe الإلهة الحميلة الغدارة معظم رفاقه بغنائها الجميل فدخلوا كهفها ، ثم خدروهم ومسختهم فصاروا خنازير . وأوشك أديسيوس أن يذبحها ، ولكنه غير رأيه ورضى بحبها ، ثم عاد هو ورفاقه إلى صورتهم البشرية وأقاموا مع سرس سنة كاملة . (١١) أبحروا بعدها مرة أخرى ووصلوا إلى أرض يغشاها الظلام السرمدي تبين لهم أنها مدخل الجحيم (هيدس Hades) ، وفيها تحدث أديسيوس إلى أطيايف أجمنون وأخييل واللدته . (١٢) ثم واصلوا سيرهم ومروا بجزيرة السيرينات Sirens ، وهناك أنجى أديسيوس رجاله من أغانيهن المغوية بأن وضع شمعاً في آذانهم . ثم تحطمت سفينته في مضيق سلا Scylls وكرديدس Charybdis (مسينا ؟) ولم ينج بمن كانوا فيها إلا هو وحده ، وقد نجا ليعيش تسع سنين أخرى في جزيرة كليسو .

(١٣) ويتأثر السنوس بقصة أديسيوس ، تدفعه شففته عليه فيأمر رجاله أن ينقلوه بحراً إلى إنكا ، على أن يعصبوا عينيه لئلا يعرف مكان أرضهم الهنيئة ويدل الناس عليها . وفي إنكا تقود الإلهة أثينة السائح الجوال إلى كوخ يوموس Eumaeus راعي خنازيره . (١٤) ويستقبله الراعي ويكرمه إكراماً حائماً ، وإن كان لا يعرفه . (١٥) وتقود أثينة تلمكس إلى هذا الكوخ نفسه (١٦) ويكشف أديسيوس عن نفسه لولده . (١٧) ويكيان كلاهما ، وينتجان بحمقة وبأعلى صوتيهما ، ويفضي الوالد لولده بخدعة يقتل بها جميع الذين تقدموا لخطبة زوجته .

(١٧ - ١٨) ويدخل القصر في زى متسول ، ويرى الخاطبين يأكلون ويتمتعون بماله ، وتغلى مراحل الغضب في صدره حين يعلم أنهم يضاجعون خادmatesه بالليل وإن كانوا يغازلون بئلي بالنهار . (١٩ - ٢٠) ويحتقره الخاطبون ويهينونه ولكنه يرد أذاهم بقوته وصبره . (٢١) وكان الخاطبون وقتئذ قد كشفوا حيلة النسيج التي خدعهم بها بئلي ، وأرغموها على أن تفرغ منه ، وتوافق على أن تزوج من يستطيع منهم أن يشد وتر قوس أديسيوس المعلق على أحد جدران القصر ، ويرى منه بسهم يمر من فتحات اثنتي عشرة بلطة مصفوفة في صف واحد . ويحاولون جميعاً أن يفعلوا هذا ولكنهم لا يفلحون ، ويطلب أديسيوس أن تتحاح له الفرصة ليحرب حظه ويفلح فيما أخفقوا فيه . (٢٢) ثم يلقى عن نفسه القناع ويكشف عن حقيقة أمره وهو غضبان أسف ، ويصوب سهامه إلى صدور الخاطبين ويقتلهم جميعاً بمعونة تلمكس ، ويوميس ، وأثينا . (٢٣) ويلقى صمونة شديدة في إقناع بئلي أنه هو أديسيوس ، ذلك أن من أصعب الأمور أن تتخلى امرأة عن عشرين خاطباً من أجل زوج واحد . (٢٤) ويواجه هجمات أبناء الخاطبين ، ويستل سخائم صدورهم ويستعيد ملكه .

وفي هذه الأثناء كانت أشد المآسى في القصص اليوناني تجري في مجراها ذلك أن أرسيتز Arestes بن أبهمنون كان وقتئذ قد بلغ رشده ، وأثارت أخته إلكترا ثائرتة فأخذت بئار أبيهما وقتلأ أمهما وعشيقتها . وقضى رستيز بعدئذ سنين كثيرة يضرب في الأرض وهو ذاهب العقل حتى جلس آخر الأمر على عرش أرجوس - ميسيني (حوالي عام ١١٦٧ ق . م) ، وضم بعدئذ اسبارطة إلى ملكه (*) . ولكن بيت پلوپس Pelops أخذ بعد اعتلائه العرش في الاضمحلال ،

(*) عن السير آر إيفز في قبر ميسيني في بؤوتيا على نقوش محفورة تمثل كهلا يهاجم تمثالا لأبي الخويل وشابا يهاجم رجلا أكبر منه سناً وامرأة . ويرى أن هذه النقوش تشير إلى -

ولعل هذا الاضمحلال قد بدأ من أيام أجمنون نفسه ، وكان هذا الزعيم قد اتخذ الحرب وسيلة لضم شتات ملك كان وقتئذ ينفرط عقده . غير أن انتصاره كان الضربة القاضية عليه لأن من كان معه من الزعماء لم يعد منهم إلا القليل ، وشقت كثير من الممالك عصا الطاعة وخرجت على كثيرين ممن لم يصحبوه من الزعماء . ولم يكد ينتهى العهد الذى بدأ بحصار طروادة حتى كانت قوة الآخيين قد أنهكت ونضب معين الحياة من جسم أبناء بلوئس ، وأخذ الشعب يترقب فى صبر وأناة ظهور أسرة جديدة .

— أدسيوس وأرستيز . وإذ كان يعزو هذه النقوش إلى حوالى عام ١٤٥٠ ق.م. فإنه يرجع تاريخ أدسيوس وأرستيز بناء على هذا إلى عصر يسبق بمائتى عام للعصر الذى حددناه فى المقن إلى هاتين الشخصيتين تحديداً لا نجزم بصحته .

الفصل السادس

فتح الدوربين

اجتاحت بلاد اليونان حوالى عام ١١٠٤ موجة جديدة من الهجرة أو الغزو متدفقة من الشمال القلق المضطرب النازع إلى التوسع ؛ فقد انزلق أوسار إلى البلوونيز ، أو تدفق عليها ، شعب ذو روح حربية ؛ طويل القامات مستدير الرؤوس ، معدوم الصلة بالأدب ، بعد أن اخترق إليريا وتسلوا وعبر خليج كورنثة عند نوپكتوس Naupactus ، ومضيق كورنثة عند كورنثة نفسها ، واستولى على البلاد وقضى على الحضارة الميسينية قضاء يكاد يكون تاماً . وكل ما نقوله عن أصلهم وعن الطريق الذى سلكوه لا يرقى إلى أكثر من الحدس والتخمين . أما أخلاقهم وأثرهم فى البلاد التى فتحوها فإن علمنا عيها يرقى إلى مرتبة اليقين . لقد كانوا لا يزالون فى مرحلة الرعى والصيد ؛ وكانوا من حين إلى حين يستقرون لفلح الأرض ، ولكن جل اعتمادهم كان على ماشيتهم ، وكانت حاجة هذه الماشية إلى المرعى الحديد سبباً فى كثرة نقلهم وعدم استقرارهم . وكان الشيء الوحيد الموفور عندهم وفرة لم يسمع بها عند غيرهم هو الحديد ؛ ومن أجل ذلك كانوا هم رسل الثقافة الهلستانية (*) إلى بلاد اليونان ؛ وكانت صلابه أسياهم وشدة بأسهم سبباً فى تفوقهم على الآخرين والكريتيين ، وفى قسوة قلوبهم وبطشهم الشديد ، وكان الآخيون والكريتيون وقتئذ يستخدمون أسلحة من البرنز . والراجع أنهم تدفقوا من الغرب والشرق ، من إليس ومجارا ، على ممالك البلوونيز المتفرقة الصغيرة وذبحوا بسيوفهم طبقاتها الحاكمة ، واتخذوا من بقى

(*) مدينة فى انصا أطلق اسمها على الفترة الأولى من الحديد فى أوروبا لكثرة ما كشف فيها من الآثار المصنوعة منه .

من المسيبيين أرقاء . ودمرت النيران ميسيني وتيرينز وأضحت أرجوس عاصمة جزيرة بلوبس وظلت كذلك مائتين من السنين . واستولى الغزاة في برزخ كورنثة على أكروكورنثوس Acrocorinthus وهي قمة عالية تشرف على ما حولها وتسيطر عليه ، وشادوا حولها مدينة كورنثة الدورية^(٨٠) . وفر أمامهم من بقي حياً من الدوريين ، فلبجأ بعضهم إلى جبال الپلوبونيز الشمالية ، وبعضهم إلى أتكا ، وعبر بعضهم البحر إلى الجزائر وإلى سواحل آسية . واقتنى الفاتحون أثرهم إلى أتكا ولكنهم صدوا عنها ؛ وجاءوا في أثرهم إلى كريت^(٨١) ، ودمروا ما بقي من كنوسس لدميراً تاماً ؛ واستولوا على ميلوس وثيرا Thera وكوس Cos ، ونيدس Nidus ورودس . وكان الخراب أشمل وأتم في جميع أنحاء الپلوبونيز ودرت حيث ازدهرت الثقافة الميسينية أكثر من ازدهارها في غيرها من الأصقاع .

وهذه الكارثة الختامية التي وقعت في العصر السابق للحضارة الإيجية هي المعروفة لدى المؤرخين المحدثين باسم الفتح الدوري ، والتي تسميها الرواية اليونانية « عودة المرقليين » . ذلك أن الظافرين لم يقنعوا بأن يسموا انتصارهم هذا غلبة أقوام هجم على شعب متحضر ، بل قالوا إن ما حدث في واقع الأمر هو أن أبناء هرقل ومن تناسلوا من أبنائه حبل بينهم وبين حقهم المشروع في العودة إلى الپلوبونيز ، فانزعوا هذا الحق بقوة سواعدهم وبطولتهم . ولسنا نعرف ما في هذا القول من الحقائق التاريخية وما فيه من الأساطير الدبلوماسية التي يقصد بها تصوير هذا الفتح الدموي في صورة حق مقدس . ولنا ليصعب علينا أن نعتقد أن الدوريين قد برعوا في الكذب هذه البراعة كلها في شباب العالم . وقد تكون القستان كلتاها محييتين وهو ما لم يسلم به المحاجون : فقد يكون الدوريون غزاة فاتحين من الشمال يقودهم أبناء هرقل وحفدته .

ومهما يكن مظهر هذا الفتح فإن ما ترتب عليه من الأثر هو أنه عاق تقدم بلاد اليونان ونماءها زمناً طويلاً ، وأصابها بمحنة شديدة . فقد ظلت أحوالها السياسية مضطربة قرنين كاملين ، وكان كل رجل فيها يحمل السلاح لأنه بات غير مطمئن على حياته ؛ وزادت أعمال العنف زيادة مطردة فعملت أعمال الزراعة والتجارة البرية والبحرية ، واشتعلت نيران الحرب وعلا سعرها ، وازداد الفقر شدة وانتشاراً ؛ وأصبحت الحياة قلقمة مضطربة لأن الأسر أخذت تنتقل من إقليم إلى إقليم طلباً للأمن والسلام^(٨٢) . ويسمى هزبود Hesiod هذا العصر عصر الحديد ، وبأسف على فسادِه وانحطاطه عن العصور الجميلة التي سبقتَه ، وكان كثير من اليونان يعتقدون أن « كشف الحديد قد أضر بالإنسان^(٨٣) » ؛ واضمحلت الفنون وأهمل التصوير ، وقنع المثالون بنحت التماثيل الصغيرة الملونة ؛ وانحطت صناعة الفخار لأن الصناع غفلوا عما كان يمتاز به فن ميسيني وكريت من نزعة طبيعية حيوية ، فاتبعوا « طرازاً هندسياً » لاحاة فيه ، ظل يسيطر على فن الخزف اليوناني جملة قرون .

ولكن الخسارة لم تحل بكل شيء ، فقد امتزج العنصر الجديد بالقديم امتزاجاً سريعاً في خارج لكونيا Laconia وامتزاجاً بطيئاً في داخلها ، على الرغم من تصميم الغزاة الدوريين على أن يحتفظوا بدمائهم نقية طاهرة من دماء الأهليين المغلوبين ، وعلى الرغم من الكراهية العنصرية بين الدوريين والأيونيين ، وهى الكراهية التي اضطبغت بها بلاد اليونان على بكرة أبيها . ولعل امتزاج دم الأخيين والدوريين القوى النشط بدم الشعوب التي هى أقدم من هذين الشعبين وأرق ، والتي كانت تقيم في جنوبي اليونان ، لعل هذا كان ذا أثر حافز منشط . ومهما يكن لهذا الامتزاج من أثر فإن النتيجة النهائية التي أسفر عنها بعد قرنين من الزمان هى نشأة شعب جديد مختلف عن الشعوب التي كانت تعيش من قبل في تلك البلاد ، امتزجت فيها دماء عناصر « البحر المتوسط » و « الألبى » و « الشمالى

(النوردى) « والعناصر الأسبوية امتزاجاً أدى إلى كثير من القلق والاضطراب .

كذلك لم تمنح الحضارة المسيحية من الوجود . فقد بقيت الحياة كامنة طوال قرون العنف والفوضى في بعض عناصر التراث الإيجي - كطرائق الحكم والنظام الاجتماعى ، وعناصر الصناعات اليدوية والفنية ، وأساليب التجارة وطرقها ، وأشكال العبادة وأدواتها^(٨٤) ، والمهارة في صنع الخزف والنقش ، وفن طلاء المظلمات ، وأساليب الزينة وطرز العمارة . ويعتقد اليونان أن النظم الكريتية قد انتقلت إلى اسبارطة^(٨٥) ، وقد ظلت الجمعية الآخية عنصراً أساسياً في بلاد اليونان الديمقراطية . وأكبر الظن أن تصميم الهياكل الدورية قد أخذ عن الميسينيين^(٨٦) ، بعد أن خلعت عليه الروح الدورية حرية وتناسقاً وقوة . وانتعشت التقاليد الفنية انتعاشاً بطيئاً فرفعت كورنثة وطيبة وسكيون Sicron وأرجوس إلى نهضة فنية مبكرة ~~في~~ بالنهضة الأوروبية التي أعقبت العصور الوسطى ، وجعلت الفن والغناء يتسمان في اسبارطة العنيدة نفسها ، حيناً من الدهر ، وظلت هذه التقاليد تبعث الحياة في الشعر الغنائى طوال هذا العصر المظلم الذى لا تاريخ له ، وحملها معهم البلاسجيون والآخيون ، والأيونيون ، والميناويون المنفيون في هبرتهم إلى جزائر بحر إيجه وإلى آسية هرباً من الغزاة الفاتحين ، وأعانت المدن التي أقامها المستعمرون على أن تفوق أمهاتها في الآداب والفنون . ولما جاء المنفيون إلى الجزائر وإلى أيونيا وجدوا بقايا الحضارة الإيجية فاستولوا عليها واستعانوا بها . فقد احتفظ عصر البرنز بشيء من المهارة والنضارة القديمتين في المدن القديمة بهذه الجزائر ، لأنها كانت أقل اضطراباً من مدن القارة الأوروبية ، وهناك في هذه الأرض الأسبوية بدأت بعدئذ بقطعة اليونان الجديدة .

وبعض هذا الاتصال بين خمس ثقافات - الكريتية والميسينية والآخية ، والدورية والشرقية - الشباب من جديد في حضارة بدأ يدب فيها دينب

الفناء ، حضارة فقدت رقتها في أرض القارة بفعل الحرب والنهب ، وأصبحت حضارة منحلة مخنثة في كريت لما ركنت إليه عبقرية أهلها من ترف . وقد احتاج امتزاج السلالات والأساليب قروناً عدة حتى استقر بغض الاستقرار ، ولكنه أعان على خلق ما في التفكير اليوناني والحضارة اليونانية من تنوع ، ومرونة ، ودقة منقطعة النظير . وليس من حقنا أن ننظر إلى الثقافة اليونانية على أنها وميض لاح فجأة ، وبطريقة غير عادية ، في بحر مظلم من الممجية ، بل إن علينا أن ننظر إليها على أنها عملية بطيئة كدرة أدت إلى خلق شعب غني غني يكاد أن يكون مفرطاً في تنوع دماثة وفي ذكرياته ، تحيط به وتحداه ، وتعلمه ، جموع همجية ، وإمبراطوريات قوية وحضارات قديمة ۞

_____.